الجامعة الأردنية
كلية الدراسات العليا

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع ..... التاريخ ١٩٩٩/١٢/١٨

صورة العدو في شعر محمود درويش

رسالة ماجستير

المشرف
أ.د. هاشم ياغي

إعداد الطالبة
أسماء غيث أبو غيث

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير
قسم اللغة العربية / كلية الدراسات العليا
شهر كانون الأول ١٩٩٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قرار لجنة المناقشة

- أجيزت هذه الرسالة بتاريخ ٧/١٢/١٩٩٩م

- توقيع اللجنة:

أ.د هاشم ياغي (مشرفاً) .....

أ.د إبراهيم السعافين (عضواً) .....

د. جاسر أبو صفية (عضواً) .....

د. خليل الشيخ (عضواً) .....

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهداء

إلـى

أبـي العزيـز غيـث

إلـى

أمي الغالية انتصار

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفهرست

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
الاهداء	ج
الفهرست	د
التلخيص	ق
المقدمة	هـ
التمهيد	و
- الفصل الأول	١
- صورة العدو حتى عام ١٩٧٠م	٢٢
* الصراع والخراب والتدمير	٣٥
* ممارسات العدو	٤١
- الممارسات الدموية للعدو الصهيوني	٥٤
= الضحية والقاتل	٦٥
= أداة القتل	٧١
- ممارسات السجن والقمع والتعذيب	٧٨
* الوجود الصهيوني بمثله أفراد وسلطة	٧٨
= الأفراد	٨٧
= السلطة	٩٤
- الفصل الثاني	
صورة العدو حتى ١٩٩٥م	٩٥
* صورة العدو حتى ١٩٨٢م	٩٦
= صورة العدو بين ذاكرة الشاعر والأرض	١٠٤
= صورة العدو واللاجئ	١٠٨
= الطائرات وجه جديد للعدو	١١١
* صورة العدو حتى ١٩٩٠م	١١٢
= العدو والمجزرة	١١٩
= العدو- البرابرة	١٢٤
= العدو والتاريخ	١٣٠
* صورة العدو حتى ١٩٩٥م	١٣٢
= العدو والسلام	١٣٦
= العدو وإعادة صياغة وعي الذات	١٤٣
الخاتمة	١٤٤
المصادر والمراجع	١٤٤
ملخص انجليزي	١٤٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التلخيص

صورة العدو في شعر محمود درويش

إعداد: أسماء أبو غيث المشرف: د. هاشم ياغي

تدور هذه الدراسة حول صورة العدوفي شعر محمود درويش لما ارتبط به مع القضية الوطنية الفلسطينية وتستخرج هذه الدراسة الصورة من شعره من خلال نمط العلاقات التي عبر عنها مع العدو وأثر هذه العلاقات على حياة الإنسان الفلسطيني.

الى جانب نظرة الشاعر الخاصة نحو العدو، الذي سماه أحياناً بالآخر وحلول في فترة محاولاً أن يصنع نوعاً من التميز بين وجوده كسلطة وأفراد.

وقد عكست هذه الدراسة رؤية الشاعر لواقع العدو، وخلفيته العقدية والسياسية وأثر وجوده على وجود ومسيرة الشعب الفلسطيني وتطور ذلك بتطور الأحداث والعلاقات.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مقدمة

عبر درويش في إحدى المقابلات معه عن انحيازه للمهزوم، الذي يـــرى أن من حقه المشاركة في كتابة التاريخ الذي يكتبه الأقوياء عادة، هذا التاريخ الذي يلجأ المهزوم إلى النص الأدبي لتدوينه. ورغم أن الشعر ليس تأريخاً، إلا أنه يخرج مـن مرحلته محملاً بروائحها، لتشمها الأجيال اللاحقة ممتزجـــة بالإحســـاس الإنســـاني للشعراء الذين تركوها. ولهذا، كثيراً ما كان يثيرني عند محاولتنا قـــراءة هجمـــات الغزاة عبر تاريخنا في النصوص الأدبية الباقية وتصوير الشعراء لها، تساؤل عـــن الكيفية التي ستقرأ الأجيال القادمة حقبتنا، في بحثها في عالم الآداب. فرغبت فـــي استباق ذلك، وحين أرادت أن أختار مجالاً لبحثي، رأيت أن الأجيال اللاحقة عـــادة تميل إلى النظر إلى ما لدى أشهر أدباء مرحلة ما، ولأن الشعر يمتلك خصوصيـــة جمالية يجعله أقدر على التواصل مع الأجيال، فضلت أن أتناول موضوع بحثي عند أشهر شعراء مرحلتنا والذي بدا شعرياً أكثر ارتباطاً بالقضيـــة الوطنيـــة، محمـــود درويش ...

الذي اعتمدت على دواوين شعره، وكتبه النثرية، ومقالاته، والمقابلات معه، سعياً لفهم تصوره للمرحلة، هذا التصور الذي عكسه في شعره. وكـــان أكـــثر مـــا يعنيني هو تصوره وتصويره للعدو ووجوده أثره. على الأصعدة كافة.

ولعله من الصعب على الباحث أن يحاول النطق بأفكار ولغة، شاعر حـــي شهير له ماله من مكانته الأدبية والثقافية والفكرية، في قضية تبدو ذات حساسية في تناول مواقف الشاعر وراؤه. إلا أن الشعر حين ينطلق يصبح حقاً عاماً، يحتكم فيـــه القارئ الى النص أولاً. وتبقى هذه محاولة أقوم بها الآن، أو غيري من بعد.

وفي تناولي صورة العدو في شعر محمود درويش، يجد المرء نفسه مبتعداً عن تجسيد مشاعر العداء في موقف الشاعر، لكنه يقترب جداً من ممارسة عدوانيـــة يؤديها الطرف الأخر. الذي لم يلجأ الشاعر إلى تسميته بالعدو في أغلب المواقـــف ولاسيما في المرحلة الأولى، إذ نستطيع تقسيم شعر محمود درويش، فـــي تناولـــه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صورة العدو الى مرحلتين اعتماداً على انتقاله من داخل الأرض المحتلة الى خارجها. وتمثل المرحلة الأولى مرحلة يقترب فيها الشاعر من مواجهة الأعداء يومياً ويعيش تحت ضغط الظروف السياسة والاجتماعية والثقافية هناك، فكثرت القضايا التي يلح عليها بأثر وجود المحتل، تلك القضايا التي تؤثر على الناس وحياتهم، مثل سؤال الهوية والارتباط بالأرض، في مقابل ذلك الآخر الذي جاء لإلغائهما. وسؤال الحياة والموت، أمام استباحة العدو حياة الناس ودماءهم. وسؤال الحرية والصمود، أمام القمع والسلب الذي تمارسه السلطات عليهم ... الى جانب محاولة التوازن الصعبة التي كان يسعى إليها الشاعر أمام متطلباته شاعراً يحاول أن يجد حيزاً لشعره ومتطلباته ووطنياً يرفض ما يراه واقعاً على أرضه. لينتقل بعد ذلك الى مرحلة الخروج التي خرج بها الشاعر من ضغط عدد من الأسئلة والتوازن، ليكون أكثر صراحة في تجسيد موقف العداء الوجودي والتاريخي ضد هذه الجهة بعينها ومن يدعمها. لكن هذا الخروج، جعل موقف المواجهة أقل إلحاحا أمام مواقف أخرى يجد الشاعر نفسه معنيا بها أكثر وهي التجربة العامة للوجود الفلسطيني. فيرتبط حينئذ ظهور صورة العدو بعدد من الأحداث التي ألقت ظلالها على شعره. وبدت في شعره. جزءاً من ذاكرة ووعي الوجود الفلسطيني في نظره للماضي والحاضر وسؤال المستقبل. وفي استقصائي لهذه الصورة فصلت تناولها من خلال القضايا التي طرحها الشاعر مرتبطة بوجود العدو. وفق ما ظهرت في كل مرحلة من خلال موقف أو ممارسة أو تصوير.

وأخيراً أرغب بشكر كل من مشرفي، الدكتور هاشم ياغي، والأعضاء المناقشين، الدكتور خليل الشيخ والدكتور جاسر أبو صفية والدكتور إبراهيم السعافين على الجهد الذي قدموه في قراءة الرسالة وإبداء ملاحظاتهم عليها، إلى جانب إمداد الدكتور جاسر أبو صفية لي بعدد من المصادر الهامة التي لم يتح لي الحصول عليها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تمهيد

ظهرت العديد من الدراسات التي تحاول استقصاء صور الوجود الصهيوني على الأرض الفلسطينية كما عبر عنها الأدباء في داخل الأرض المحتلة أو خارجها. وكثيرا ما مالت هذه الكتب إلى اتخاذ عنوان أو تسمية "اليهودي" عنواناً لدراستها وبحثها، الذي دار في بعض الكتب حول ظهور الشخصية اليهودية في الأدب عامة وتطورها خلال فترات زمنية مثل كتابي حمودة زلوم، "الشخصية اليهودية في الأدب الفلسطيني الحديث" الذي استقصى الصورة عند عدد من الأدباء الفلسطينيين مستنكرا على البعض إيرادهم صورا إيجابية أو متعاطفة مع نماذج يهودية معتبرا ذلك نوعا من الانهزامية. وكتاب عادل الأسطة "اليهود في الأدب الفلسطيني بين ١٩١٣-١٩٧٨" الذي طرح صورة اليهودي متطورة خلال فترات متعاقبة من الأدب الفلسطيني، فمن تلك الشخصية التي أخذ منها موقف سلبي يميل إلى التعميم، مع رسم صورة تقليدية لليهود تدور حول بخلهم وجبنهم ومكرهم ورذيلتهم قبل ١٩٤٨، مع بداية تمييز بين اليهودي والصهيوني، يتطور بعد ذلك بنوع من التفاوت فيه، فمرة يظهر اليهودي عدوا وأخرى يظهر ضحية للصهيونية إلى جانب محاولة التمييز بين اليهود العرب واليهود الأوربيين وهذا أكثر ظهورا في أدب المنفى. بينما يميز أدب الداخل اليهودي الحاكم واليهودي المحكوم واليهود الغربيون. ويتحدثون عن الضحية والجلاد، والاختلاف في بنية المجتمع بين العرب واليهود هذه الصورة التي تتطور بعد ١٩٦٧ إلى رفض تقسيم العالم إلى يهود ولا يهود، مع إظهار وجود يهود ضحايا للصهيونية سواء أكانوا أناسا عاديين أو جنودا ...الخ.

وقد ظهرت بعض الدراسات التي تتناول الشخصية اليهودية وتطورها عند أحد الأدباء مثل دراسة فيصل دراج في "صور اليهودي القاتمة في مرايا غسان كنفاني"[1].

---

[1] مجلة الكرمل، عدد ٥٣، ١٩٩٧ ص٢١-٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد يمثل اختيار عنوان "اليهودي" لهذه الدراسات تعبيرا عن واقع أن الاحتلال الصهيوني يعتمد على الانطلاق من العقيدة اليهودية والمأساة اليهودية لتحيل الأرض من خلال تكريس يهود العالم وتجميعهم عليها لخدمة هذا الهدف.

وعند النظر إلى محمود درويش في نصه الشعري، يصعب القول أنه عبر عن انتقاد الاحتلال من منطلق كونه يهوديا.. وخاصة أن الشاعر من المنتمين في فتراته الأولى إلى الحزب الشيوعي الإسرائيلي، الذي لا يعترف بالاختلافات الدينية والقومية. إلى جانب أن الشاعر خاض تجربة اجتماعية مع الأوساط اليهودية جعلته يصل إلى تمييز إنساني مفاده أن هناك أشخاصا يهودا طيبين وآخرين سيئين دون اللجوء إلى التعميم[1]. وهو لم يتوجه إلى انتقاد اليهودية أو الأفراد اليهوديين، ولا ينظر إلى اليهودية بكونها مفهوما سلبيا أو معيبا لذاته[2]. لكن محمود درويش يتوجه وخاصة في بداية شعره إلى انتقاد طبيعة الوجود العدواني للكيان الصهيوني على الأراضي الفلسطينية، الذي ضيع حقوق شعبه، وخاض الشاعر في ظله تجربة الخروج من الوطن صغيرا والقمع والقهر السياسي والاجتماعي والوطني والثقافي في ظل السلطة العسكرية بعد عودته إلى الوطن بعد لجوء قصير في لبنان يعود بعده وقد تحول إلى لاجئ على أرضه محروم من الوصول إلى قريته وأرضه وبيته. تلك الأشياء التي بدأت ملامحها بالتغير، وبدأ العدو يسعى إلى تغيير الإنسان نفسه معها بزرع ثقافته الخاصة فيه وسلخه عن هويته العربية[3] إلى جانب ممارسات عنصرية ضده، كل ذلك جعل محمود درويش رغم – وجوده في الحزب الشيوعي المعترف بوجود الدولة الإسرائيلية يرى في هذا الكيان الصهيوني عدوا لم يصرح به علانية بقدر لجوئه إلى تصوير الممارسة العدوانية نفسها لتتكلم عنه وعن طبيعة

---

[1] محمود درويش، لا قداسة لجلاد، الكرمل ص٢٢١.

[2] شربل داغر، كل العرب، عدد ٧، ص٥٠.

[3] محمد دكروب، الطريق، ص٤٨-٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكيان الصهيوني عند الشاعر منذ بداياته الشعرية وقد امتاز الشاعر بالذكاء وبشفافية تجعله يلتقط بدقة التحولات في مسيرة شعبه والمصير الذي قد يؤول إليه تحت تغير الظروف السياسية، فاستند إلى الاحتماء بالبعد الحضاري الذي يحفظ له حقه أمام القوة المزيفة للتاريخ التي تفرض للعدو حقا. وحين وجد في عمليات السلام ما فيه تضييع للحق الحضاري والوجودي والإنساني لشعبه، عبر عن رفض وتشكيك في إمكانية خلق مثل هذا السلام مع خصم تقوم أسس وجوده على إلغاء الفلسطيني والسعي لإسكات ذاكرته التي لا تنسلخ عن إدراك أنها قد خسرت الكثير من أرضها وحياتها. رافضا القبول الندية معه. ويدرك أنه لا يمكن ان تتطابق الرواية التاريخية للوجودين معا بل هما متضادتان. وقد قال الشاعر أنه قد يكون هناك تنازل أخلاقي وإنساني من الشعب الفلسطيني لليهود تحت ضغط الحاضر ولكن هذا التنازل ينبغي أن يكون ضمن اعتبار أن الانسحاب سيكون فلسطينيا من تل أبيب لا إسرائيليا من الأراضي المتفق عليها[٢].

[٢] محمود درويش المختلف والحقيقي دراسات وشهادات، ص٣٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

صورة العدو في شعر

محمود درويش حتى سنة ١٩٧٠م

وتمثل هذه المرحلة الفترة الزمنية التي قضاها الشاعر على الأرض المحتلّة في المواجهة مع العدو. وعايش وجود المحتل أثناءها ورأى تأثيره على الأرض والإنسان بأم عينه. وخاض المواجهة معه يومياً وتعرض لقمع سلطته وملاحقتها وحبسها له. فضلاً عن تعايشه مع أبناء المجتمع الإسرائيلي. ودخوله الحزب الشيوعي الإسرائيلي الذي ضمّ يهوداً و عرباً.

وهي مرحلة تمثل بداياته الشعرية ومر احل تطورها الأولى. وقد صدر له فيها ستة دواوين كان أولها ديوان عصافير بلا أجنحة" الصادر عام ١٩٦٠م، والذي أسقطه الشاعر من المجموعة الكاملة، أما بقية الدواوين التي وردت في المجموعة فهي وفق ما وردت[١]:

- أوراق الزيتون ١٩٦٤م
- عاشق من فلسطين ١٩٦٦م
- آخر الليل ١٩٦٧م
- العصافير تموت في الجليل ١٩٦٩م
- حبيبتي تنهض من نومها ١٩٧٠م

---

[١] محمود دوريش، ديوان محمود درويش، دار العودة، بيروت ط١٤، ١٩٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن المطلع على هذه الدواوين والقارئ لشعر درويش كافة، يدرك أن صورة العدو فيها قليلة الظهور. فهي لا تتجاوز ومضات هنا وهناك، وتأتي مكملة لمشهد معاناة الإنسان الفلسطيني الذي يعطيه درويش جلّ شعره. والمعاناة في حقيقتها ليست إلا أثرا ملموساً لوجود المحتل. فالعدو على الأغلب غاب صورة ولفظاً ولكنه حضر أثراً يعبر الشاعر عنه وهو يرسم أوجاع شعبه وأوجاعه هو تحت سلطات الاحتلال وقمعها. ولو جاز التعميم لنا لقلنا: إن أغلب شعر درويش -مضموناً- ليس إلا أثراً لوجود المحتل بطريقة ما.وتتبع هذا الأثر قد يقود البحث إلى تشعبات تبعده عن محوره المهتم بوجود العدو وملامحه وممارساته وصوره التي تبدى بها في شعر محمود درويش الذي قلّما نجد عنده ألفاظاً صريحة تعبر عن عدو أو عن الوجود الصهيوني الإسرائيلي على أرض فلسطين.

فلفظة عدو أو صهيوني أو اسرائيلي أو يهودي قلما تظهر بل بعضها لا يظهر إطلاقا. وبعضها الآخر يختفي في مرحلة من الشعر ويتضح في أخرى. بل قد يلجأ الشاعر إلى ألفاظ لا تبرز مفهوم العداء بلغة مكشوفة مثل لفظ (الآخرين). ويعزى ذلك لأسباب أهمها:-

١- انتماء الشاعر للحزب الشيوعي الإسرائيلي الذي جعل من انتماء الشاعر إلى الحزب انتماء إلى إحدى المؤسسات السياسية الإسرائيلية التي تشكل جزءا من الدولة القائمة وهذا يضع درويش في إطار أقرب إلى المعارض السياسي ويجعله فردا في مواجهة دولة يمارس موقفة ضمن قوانينها أكثر منه ثائرا عليها وعلى وجودها.

٢- احتكاك الشاعر بالمجتمع الإسرائيلي وتعايشه مع نماذج اعتبرها إيجابية سواء في مرحلة طفولته أو من خلال وجوده في الحزب إلى جانب يهود صار رفيقا لهم. مما دفعه إلى محاولة بناء ثقافة تبعده عن مفهوم (العداء) ساعيا للتحلي بقيم إنسانية تركز على القيم الإيجابية للعلاقات البشرية وتمارس الرفض لا العدوان.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لكن دون أن يخرجه ذلك عن الوعي بعمق الصراع القائم على أرض وطنه وحقيقة أبعاده ودون أن يكون ذلك على حساب إخلاصه لقضيته الوطنية والإنسانية وإدراكه لحق شعبه بهذه الأرض، يقول في قصيدته (أنا آت إلى ظل عينيك) معبرا عن موقفه:

لم أبع مهرتي في مزاد الشعار المساوم

لم أذق خبز نائم.

لم أساوم.

لم أدق الطبول لعرس الجماجم[1].

لقد أمضى الشاعر هذه المرحلة في محاولة التأقلم مع كونه رافضاً لفكرة وجود دولة الكيان الإسرائيلي وسلطاتها على أرض فلسطين، هذا الوجود الذي يعتبره سطواً على حقه وشعبه بهذه الأرض وممارسة حياتهم الإنسانية عليها. وممارسته هذا الرفض ضمن أطر المؤسسات السياسية للدولة وما تسمح هي له به، وخاصة أنه شاعر لا يتمكن من نشر شعره أو قوله إلا إذا أجازت له ذلك. تلك المحاولة قادته إلى نوع من التذبذب وعدم المصارحة دائماً بما يريد الشاعر قوله، فيصف نفسه بأنه لا يسمّي الأشياء بأسمائها، يقول:

عندما تنفجر الريح بجلدي

وتكف الشمس عن طهو النعاس

وأسمي كل شيء باسمه،

عندها أبتاع مفتاحاً وشباكاً جديداً

بأناشيد الحماس

---

[1] ق: أنا آتي الى ظل عينيك، د، حبيبتي تنهض من نومها. ص ٣٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

***

عندما تنفجر الريح بجلدي

سأسمي كل شيء باسمه

وأدق الحزن والليل بقيدي

يا شبابيكي القديمة ... ! [1]

ولا يخفى أن هذا الإحساس بالتناقض هو الذي قاد الشاعر إلى الخروج من الأرض المحتلة في نهاية هذه المرحلة في محاولة للانسجام مع نفسه كما يقول، وربما سعياً وراء تسمية الأشياء بأسمائها يقول:

"مهما بلغت قسوة رفضي للنظام الإسرائيلي من داخله، فإنها تكون في إطار الشرعية الإسرائيلية شيئاً مليئاً بالتناقض، أي أن المعادلة هي بالشكل التالي: " الرفض ضمن الاعتراف ". أنا لا أعتز بشيء بقدر اعتزازي بالانسجام مع النفس ومع المنطق... ولأنني أملك حنجرة وأملك صوتاً فلم أتمكن من الاستمرار في مسألة الاعتراض ضمن الاعتراف". [2]:

ونستطيع الوصول إلى صورة العدو عند الشاعر عن طريق التعرف على نمط العلاقات التي عبر عنها الشاعر مع العدو الصهيوني. لقد وجد محمود درويش أن العلاقة التي تحكم الإنسان الفلسطيني بسلطات الاحتلال هي علاقة " الصراع " ورغم أنه لم يعبر عنها بشكل صريح في أغلب شعره في هذه المرحلة إلا أنها كانت ضمناً تحكم المواقف والممارسات التي عبر عنها جميعاً، ويقول هو في ذلك:

---

[1] ق.د الجرح القديم، ديوان آخر الليل ص، ١٦٤-١٦٥.

[2] محمود درويش، يوميات الحزن العادي، ص ١٩٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(الصراع هو الإجابة، إذا صارعت انتميت، والوطن هـــو الصـــراع بيـــن الذاكرة والحقيبة. لا حل سوى الصراع، الحق – والحرية – والانتماء – والجـــدارة لا تعلن إلا بالصراع).[1]

ويتضح أن الصراع الذي يعبر عنه درويش ليس صراع الطبقات الذي يتبناه حزبه، بل هو صراع الوجود والوطن والأرض والحق والحرية والانتماء كما قال.

وهذا الصراع كما يعبر عنه درويش في شعره قائم علـــى عنصـــر تفـــوق العدو، والواقع الذي استولى فيه على الأرض وتملكها، وعنصر الحـــق والصمـــود والإصرار عند الشاعر وأبناء شعبه؛ ورغم أن الأرض كانت محور الصراع وسلبها مفجر المأساة؛ إلا أن الصراع عكس أبعاداً وجودية فالشاعر عبر عن الصراع فـــي سبيل الحياة اليومية والكرامة والحرية والحفاظ علـــى الهويـــة الوطنيـــة والثقافيـــة والقومية الخاصة وعن الصراع في سبيل مقاومة ادعاءات العدو الزائفة عن حقـــه بهذه الأرض وأنه المالك الأصيل لها. وأن العرب طـــارئون عليـــها وآن لـــهم أن يخرجوا منها.

- لقد تشكل الصراع عند الشاعر بوجود عناصر ثلاثة:

١) الأرض محور الصراع.

٢) الشاعر (الإنسان الفلسطيني) وهو صاحب الأرض المطرود والمقهور والمنفـــي عن أرضه على أرضه، والعاشق التائق شوقا إليها والمتطلع إلى ممارسة حياته فوق أرضها مواطناً أصيلاً لا ينفصل عن هويته، وهـــو الضحيـــة والصـــامد الصبور.

٣) العنصر الثالث والذي سمّاه محمود درويش في هذه الفترة بـــ (الآخريـــن). وقد تتطابقت هذه اللفظة في هذه المرحلة مع الإشارة إلى الوجود الصـــهيوني على الأرض المحتلة والدلالة عليه. ومفهوم الآخر يتضمن عادة معنى " المغاير

---

[1] المصدر السابق، ص ٦٤-٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" و" المختلف " و" المتباين "..... وبعض الفلاسفة يـأخذون كلمـة " آخـر " بمعنى صفة كل ما هو غير " أنا " سواء الأشخاص الآخرين أو الأشياء. وتنظر بعض الفلسفات الوجودية إلى " الآخر " بمعنى الشخص الإنساني الآخر علـى أنه الضد الذي تسلبني نظرته عالمي ويجمد حضوره حريتي ويعيقني اختياره[١] وعادة يكون هذا على صعيد العلاقات الفردية، والوجود الصهيوني في حقيقتـه عدوان، فالعدوان: هو الظلم وتجاوز الحد، وهو نمط من السلوك يتميز بـروح الاعتداء وهو مصحوب بالطموح وحب السيطرة والميل إلى تسخير كل شـيء في سبيل الأهداف الخاصة والتعصب الشديد للمبادئ والعقائد التي يؤمـن بـها المعتدي، فضلاً عن الميل إلى الإيذاء، والعدوان صفة من يعدو على غيره[٢]

وحقيقة الأمر أن الاحتلال الصهيوني عدا على الإنسان الفلسطيني وأرضـه. إلا أن الشاعر يفضل استخدام لفظة الآخر كما قلت لأنها اقل صراحة في التعبـير عن (العدو) وابعد عن التحريض الذي قد يستفز سلطات الاحتلال. فضلا عن أنـها تعبير عن انفعالات الذات وموقفها الخاص من قضاياها اتجاه كل ما هـو خـارج عنها.

ونستطيع القول: إن شعر درويش كثيراً ما عبر عن نمط التحـولات فـي العلاقة ما بين تلك العناصر الثلاثة، والتحول الطارئ على العنصر نفسه.

وعلى مستوى التفاعل بين هذه العناصر نلحظ أن العلاقة ما بيـن الشـاعر والأرض تتضارب مع علاقة الآخر بها. وهذا ما ترتب عـن كـون الأرض هـي محور هذا الصراع بين الطرفين فعلياً وهي أصل الخلاف بينهما. ونرى بوضـوح العلاقة بين العناصر الثلاثة في قصيدته " نشيد ما " في أوراق الزيتون:

عسل شفاهك واليدان

---

[١] معن الزيادة، الموسوعة الفلسفية العربية، المجلد الأول ص ١٣.

[٢] جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج٢، ص ٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كأسا خمور

للآخرين

الدوح مروحة وحرش السنديان

مشط صغير

للآخرين

وحرير صدرك، والندى، والأقحوان

فرش وثير

للآخرين

وأنا على أسوارك السوداء ساهد

عطش الرمال وأعصاب المواقد

من يوصد الأبواب دوني

أي طاغية ومارد

سأحب شهدك

رغم أن الشهد يسكب في كؤوس الآخرين[1]:-

نرى في القصيدة العناصر الثلاثة: الأرض وقد تمـــازجت فيـــها عنـــاصر الطبيعة والأنسنة، وهي حسناء بهية: والآخرين الذين بدوا متمتعيـــن بحســـن هـــذه الأرض وخيراتها، والإنسان الفلسطيني – الشاعر – الذي بـــدا مطـــروداً خـــارج الأسوار وشديد الإخلاص للأرض، فحبه مستمر له حتى في ســـاعات الحرمـــان... والقصيدة تصوير لتمتع اليهود القادمين بخيرات البلاد والاستفادة منها في حيـــن لا يستطيع العاشق (ابن الأرض) الوصول إلها، فقد أقيمت بينهما " الأسوار " والتـــي

[1] نشيد ما، ديوان اوراق الزيتون، ص ١٠-١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وضعت بفعل فاعل، هو الطاغية المارد الذي يوصد الأبواب بينه وبين المحبوبة التي ظهرت حيادية الموقف، فهي مستسلمة تقدم خيراتها للآخر ولا تفكر بالعاشق الساهر على أسوارها ولا تقاوم أسوار الطاغية وهنا نلحظ بعدين يعكسهما الشاعر للعلاقة مع العدو من خلال الصلة بالأرض باستخدامه للتعبيرين " الآخرين "، و" طاغية ومارد ". فالأولى جاءت للتعبير عن أولئك المتمتعين بخيرات الأرض والثانية لمن يحرس تمتعهم ويعيق اتصال الشاعر بالأرض. فالآخرون هم جموع اليهود الذين جاؤوا من أصقاع الدنيا إلى هذه الأرض واستعمروها وأقاموا مستوطناتهم عليها في ظل حماية ورعاية السلطة العسكرية التي مارست الاحتلال وطرد الناس وقتلهم، فكانت الطاغية بفعلها العدواني والمارد بتفوقها وهيمنتها.

والشاعر في رسمه لأبعاد العلاقة بين هذه العناصر يمارس أنواعاً من الإقصاء والتقريب بينما. فهناك نوعان من الإقصاء:

١-إقصاء ظاهري متمثل بطرد الإنسان الفلسطيني عن الأرض وعدم القرب المادي بينهما، يقابله تقريب جوهري يتعلق بالموقف الوجداني لهذا الإنسان من هذه الأرض. التي بدا متمسكاً بها لا يحب سواها وإن أقصي خارج الأسوار.

٢-إقصاء جوهري في العلاقة بين الأرض والآخرين، فاستخدام الشاعر للفظ الآخرين هنا يجعل الحديث عنهم حديثاً عن موضوع منفصل وخارج عن الدائرة التي توحد الشاعر بالأرض من خلال صلة الحب لا التمتع التي يمارسها الآخرون في قربهم الظاهري منها. فعلاقة الآخرين بها علاقة انتفاع. وهم في الحقيقة غرباء وقد عبّر الشاعر في عدة مواقع لاحقة عن كونهم غرباء على هذه الأرض جاؤوا إليها محتلين يقول:

لكنهم جاؤوا من المدن القديمة

من أقاليم الدخان

كي يسحبوها من شراييني

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فعانقت المدى [1].

ويقول:

من أين جاؤوا ؟

وكرم اللوز سيّجه

أهلي وأهلك

بالأشواك والكبد [2].

ويقول:

ومتى تكف صديقتي بالأمس، قاتلتي

تكف عن الخيانة والغناء؟

الجاز يدعوها ؟

ولكنني أناديها.. أناديها.. أناديها

وصوت الجاز مصنوع

وصوتي ذوب القلب تحت طاحون المساء[3]:

نلحظ في المقطعين الأولين استخدام الشاعر لتعبير (جاؤوا) لوصف الوجود الصهيوني على الأرض. وهذا التعبير يوحي بمرحله سابقة كانوا هم فيها غائبين عن هذه الأرض ويأتي إسناد الفعل الى ضمير الجمع الغائب ليكون الغياب مستمرا من الناحية المعنوية، وليدل في الوقت ذاته على ذلك التدفق الذي وصلوا به لقد طرح درويش سؤالاً في المقطع الثاني كان جوابه في المقطع الأول الذي جاء

---

[1] ق. السجين والقمر، ديوان آخر الليل، ص ٢١٧.

[2] ق. سقوط القمر، ديوان العصافير تموت في الجليل، ص ٢٨٢.

[3] ق. خواطر في الشارع، ديوان عاشق من فلسطين، ص ١١٥.

٥١٦٣٥٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سبيل العيش له ولها. لكننا نلحظ في هذا المقطع تحولا في تعبير الشاعر عن موقف الأرض من الآخرين فبعد أن كانت حيادية نجدها الآن تستجيب لصوت (الجاز) وتتجاهل نداءه وهي تخون، لقد خانته هنا. وربما كان هذا تعبيرا عن نوع من الإحساس باليأس مما جعلها تبدو في لحظة حزن من الشاعر خائنة له، فحبه لها لم يُعدها بل استمرت بالاتجاه نحو الآخر وقد عبر عن هذا الموقف أيضا في قصيدته "الحزن والغضب" في ديوان "أوراق الزيتون" حيث ظهرت خائنة هناك أيضا خرجت من دائرته هو ليسحبها الآخر إلى حلبة الرقص معه لكن ضمن موقف يدين فيه الشاعر نفسه وتخاذل الإنسان المحب لهذه الأرض التي لا تصل إليها مشاعر الحب حين تأتي من مهزوم وصار الآخرون بديلا لها عن ابن الأرض المنكسر يقول:

أتحبها ؟

أحببت قبلك،

وارتجفت على جدائلها الظليلة

كانت جميلة

لكنها رقصت على قبري وأيامي القليلة

وتخاصرت والآخرين بحلبة الرقص الطويلة

وأنا وأنت نعاتب التاريخ

والعلم الذي فقد الرجولة [1].

ونستطيع القول إن محمود درويش في تعبيره عن التفاعل بين عناصر الأرض، العاشق، الآخر، أكثر اهتماماً في إظهار التفاعل بين الأرض والعاشق. ولاسيما من جانب الطرف الأخير الذي يتلون حبة أشكالا ألوانا وفق الحالة النفسية التي

---

[1] الحزن والغضب، ديوان اوراق الزيتون، ص ٥٨-٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يحياها. لقد لحظنا أن العناصر الثلاثة قامت وحتى الآن على تملك الآخر لـــلأرض وتمتعه بها وأمام ذلك كانت هي حيادية أحيانا وأخرى متجاوبة مندفعة إليه، وبقـــي العاشق عاشقا رغم التغيرات في موقف المحبوبة.

لكن هذا التفاعل يأخذ أبعادا مختلفة. فرسم الشاعر أرضه تحـــت الاحتـــلال مطاردة ويتيمة وأرملة في قصيدته (عاشق من فلسطين) من ديوان "عاشـــق مـــن فلسطين":

رأيتك في جبال الشوك

راعية بلا أغنام

مطاردة او في الأطلال ...

رأيتك في خوابي الماء والقمح

محطمة. رأيتك في مقاهي الليل خادمة.

رأيتك عند باب الكهف.. عند النار

معلقة على حبل الغسيل ثياب أيتامك [1].

في هذه القصيدة التي يسعى فيها الشاعر إلى تـــأكيد هويتـــه الفلســـطينية، وفلسطينية الأرض بدت هي ضحية أخرى للعدو، وتشترك مع الشاعر في الوقـــوع تحت فعل الاضطهاد.

وقد وردت هذه القصيدة في الديوان الى جانب قصيدة (خواطر في شارع) التي ظهرت فيها مستجيبة لنداء موسيقى الجاز وهذا بالطبع يعكس الحالة النفســـية للشاعر التي رأى الأرض في لحظات اليأس القليلة خائنة ولكنه يـــدرك بعمـــق أن الأرض يمارس عليها القتل كما يمارس عليه فعبر عـــن ممارســـات العـــدو ضـــد الأرض.

---

[1] ص ٧٩-٨٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ففضلا عن سلب هذه الأرض من ممتلكيها وتسخيرها في خدمـــة مصـــالح المستوطنين بدت عند الشاعر عملية قتلها وتغيير معالمها وطمس هويتها وتـــهويدها فالشوارع تقتل أسماءها ويافا تترجم حتى النخاع يقول:

رأيت الشوارع تقتل أسماءها

وترتيبها

وأنت تظلين في الشرفة النازلة

الى القاع،

عينين من دون وجه

ولكن صوتك يخترق اللوحة الذابلة

مدينتنا حوصرت في الظهيرة

مدينتنا اكتشفت وجهها في الحصار[١].

ويقول في آخر دواوين هذه المرحلة (حبيبتي تنهض من نومها):

منزل الأحباب مهجور

ويافا ترجمت حتى النخاع

والتي تبحث عني

لم تجد مني سوى جبهتها[٢].

الأرض تفقد معالمها ويغيب وجهها فالعدو لم يكتف بمجرد كونـــه متمتعـــا ومتملكا لها بل يقودها لتدخل تحت عباءته، والأرض عاجزة أمام إضفـــاء الآخـــر لهويته عليها فكأن الشوارع نفسها تقتل أسماءها ويافا وصلت ترجمتها الى النخـــاع.

---

[١] ق. كتابة بالفحم المحترق، ديوان العصافير تموت في الجليل، ص ٢٦٦.

[٢] ق. يوميات جروح فلسطين، ديوان تنهض من نومها، ص ٣٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي المقابل يصرخ الشاعر أنها فلسطينية كانت ولم تزل. وفي قصيدته "عاشق من فلسطين" تبقى عينا المحبوبة وإن غاب وجهها الذي تعيد اكتشافه تحت الحصار والقمع والقهر الذي لم يعد يمارسه الآخر ضد الإنسان فحسب بل وضد الأرض ليصل بهما الى التوحد في الدائرة ذاتها. فصرخ الشاعر في قصيدته (خارج من الأسطورة) بأن الأرض لم تشخ أو تخن أو تمت. وفي ديوانه آخر الليل[1] بعد حرب ١٩٦٧ يتوج موقفه بفهم جديد لوجود الآخر وانعكاس ذلك على صلته بالأرض في ديوانه الأخير لهذه المرحلة "حبيبتي تنهض من نومها" يقول:

كان لابد من الأعداء

كي نعرف أنا توأمان

كان لابد من الريح

لكي نسكن جذع السنديان

ولو أن السيد المصلوب لم يكبر على عرش الصليب

ظل طفلا ضائع الجرح جبان[2]

لقد سمى درويش الآخرين أعداء هنا صراحة وتحول وجود العدو من سبب الحرمان الى موحد للأرض و الإنسان في ظل الصراع معه بعد أن وقع ضيمه عليهما كليهما. فالأعداء أو الريح تحولوا الى عامل تحريض ليكتشف هذا الإنسان هويته ونفسه متعلما من جراحه كيف ينهض ويقاوم بعد أن كان منكسرا أمام حرمانه من أرضه. وتنهض الحبيبة من نومها لتلتحم مع عاشقها توأما لتتأكد هويتهما بالتحامهما معا. ويتأكد الترابط الجوهري والأصيل بينهما في مواجهة الآخر الطارئ. الذي يسعى الآن أمام ثبات أصالة صلة الإنسان الفلسطيني بأرضه الى

---

[1] ص ١٦٩.

[2] أغني المصدر السابق، ص ٣٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إيجاد صلة مزيفة بنبش الآثار وادعاءاته الأسطورية. وقد بدى الشاعر في فترة متأخرة من هذه المرحلة أكثر وضوحا في انتقاده اعتماد العدو على الأساطير والخرافات التلموديه في إقامة دولته وتثبيت أركانها، بينما كان في الدواوين السابقة يركز على نقد الممارسات اليومية ضد الناس وقد بدأ ذلك بعد حرب ١٩٦٧ خاصة ولعل ذلك يعود الى توجه الشاعر نحو البعد الحضاري والتاريخي لإثبات الحق بهذه الأرض يقول:

عالم الآثار مشغول بتحليل الحجارة

إنه يبحث عن عينة في ردم الأساطير

لكي يثبت أني:

عابر في الدرب لاعينين لي

لا حرف في سفر الحضارة

وأنا أزرع أشجاري على مهلي.

وعن حبي أغني. [1]

لقد بدت الأسطورة في شعر درويش عند العدو مسخرة في سبيل هدفي:

١-محاولة طمس وجود الانسان العربي التاريخي والحضاري على الأرض، وإلغاء حقه بها لتكون حقا لليهود فعالم الآثار مشغول بنبش التراب ليثبت أن العربي طارئ على هذه الأرض، وأنه هو قديم عليها. والشاعر يقابل هذا الموقف بثقة كبيرة تتمثل في الانصراف الى الإعمار وبناء الحياة المتمثل بالزراعة لا يقلقه إثبات صلته بالأرض أو الرد على مزاعم العدو، بل يمارس الغناء وحبه لها فهما مترابطان دون حاجة أدلة تثبت أمرا موجودا.

---

[1] دوميات جرح فلسطين، د. حبيبتي تنهض من نومها، ص ٣٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢-جعلها وسيلة لتعبئة اليهود أنفسهم واقتيادهم إلى هـذه الأرض وخلـق روابـط وهمية من خلال إدعاء علاقة تاريخية ودينية رائعة ولقد عبر درويش عن أبعاد هذه الأسطورة ضمن المجتمع الإسرائيلي نفسه. ففي حين ينطلق الحلم مسـعورا ممتداً من النيل الى الفرات تحمله سلطة متوحشة في (الأغنية والسـلطان). [١] كانت بعض النماذج الفردية الإسرائيليه كما يصورها درويش تدرك أن الخرافـة لا تصنع حقيقة تمتلك القلب وقد عبرت عن هذا الموقـف شـخصيتان همـا: الجندي الحالم بالزنابق البيضاء في ديوان "آخر الليل" و "شولميت" في ديـوان" حبيبتي تنهض من نومها "حيث استغل العدو الأسطورة، ظناً أنها قد تخلق واقعا حياتيا جديدا لليهود. لكن تلك الأفكار التي عبرت عنها الشـخصيات اليهوديـة توحي بعدم نجاح تلك الأساطير في تحريف الحاجة الحياتية الإنسانية في نفوس أبناء المجتمع اليهودي وهذا يتضح في عدم خلق صلة حقيقية مع الأرض يقـول في قصيدته "جندي يحلم بالزنابق البيضاء" على لسان الجندي في حديث يبيـن الصلة بالأرض من جانب الآخر:

سألته: والأرض ؟

قال: لا أعرفها

ولا احس أنها جلدي ونبضي

مثلما يقال في القصائد

وفجأه رأيتها

كما أرى الحانوت... والشارع ...والجرائد.

سألته: تحبها

أجاب: حبي نزهة قصيرة

---

[١] ديوان آخر الليل، ص ٢٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أو كأس خمر.. أو مغامرة

من أجلها تموت ؟

كلا

وكل ما يربطني بالأرض من أواصر

مقالة نارية، محاضرة

قد علموني أن أحب حبها

لم أحس أن قلبها قلبي

ولم أشم العشب والجذور والغصون..

وكيف كان حبها

يلسع كالشموس.. كالحنين ؟

أجابني مواجها:

وسيلتي للحب بندقية

وعودة الأعياد من خرائب قديمة

ضائع الزمان والهوية [1]

- إلى جانب البندقية كانت عودة الأعياد من (الخرائب) والتمثال القديم الذي ضاعت هويته وزمانه، وسائل للحب الموهوم الذي يريد أن يفرض صلته بالأرض. ونلحظ أن الجندي قدم البندقية على الأسطورة وسيلة للحب لأنها تمثل الصلة الحقيقية والفعلية القائمة بالأرض، بينما يأتي حديثه عن الأسطورة ذاته معبرا عن عدم إيمانه بها، فهو لم يتحدث عن مدن وممالك يهودية، بل خرائب بوصف يقترب من السخرية والازدراء، مدركاً أن إسقاط ادعاءات اليهود على

[1] جندي يحلم بالزنابق البيضاء، ديوان آخر الليل، ص ١٩٠-١٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الآثار لا يغير شيئا فهي في نظره تمثال ضاع زمانه وهويته فلا يثبت شيئا ولا يمثل حقيقة وهنا تظهر صلة (الآخر) بالأرض صلة مفروضة تمثل على نفسها الحب فالجندي تعلم كيف يحب حبها لا كيف يحبها وهنا يؤكد الشاعر الإقصاء الجوهري في الصلة بين الأرض والآخر فكل حديث الجندي عن الأرض كما قاله درويش حديث فاتر تبدو فيه الأرض بالنسبة له مجرد شيء جامد بارد، في الوقت الذي يتقدم عليها عنده كأس الخمر والنزهة القصيرة فهو لم يحس أن قلبها قلبه، ولم يتمكن من التواصل مع تفاصيلها من عشب وجذور وغصون: فهو لم يجد من الأحاسيس فيها ما كان يوعد به واختصار ذلك أنه لا يعرفها،في الوقت الذي بدت فيه شخصية الشاعر تعرف ذلك النوع من الحب الذي يلسع ويملأ بالحنين، لنقف أمام حالتين: لا حب للأرض من الجندي (الآخر) والحب من الشاعر. وفي قصيدة (كتابة على ضوء بندقية) يقول:

ألف إعلان يقول:

نحن لن نخرج من خارطة الأجداد

لن نترك شبراً واحداً للاجئين[1]:

"وعن شولميت يقول":

كان لا يغضبها، لكنه كان يقول:

كلمات توقع المنطق في الفخ

إذا سرت إلى آخرها

ضقت ذراعاً بالأساطير التي يعبدها

وتمزقت، حياء، من نواطير الحقول[2]

وعلى لسانها وهي تخاطب صديقها الجندي:

[1-2-3] كتابة على ضوء البندقية، ديوان حبيبتي تنهض من نومها، ص ٢٣٢،٢٣٥،٢٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أجابت: في صباح الغد تمضي

وأنا أشرح للجيران أن الوهلة الأولى

خداع للبصر

نحن لا ندفع هذا العرق الأحمر

هذا الدم لا ندفعه

من أجل أن يزداد هذا الوطن الضاري حجر(٣).

يظهر الشاعر في بداية قصيدته هذه مدى الضغط الإعلامي المستغل للأسطورة في تمثيل هذه الأرض أرضاً للأجداد فرغم أن الشخصية كانت تجلس في "البار" إلا أن هذه الإعلانات كانت تحيط بمجتمعها دائماً لتشكل ثقلاً يفرض نفسه على أبناء المجتمع الإسرائيلي ويحكم حياته. لقد وصفت شخصية (شولميت) موقفها من هذه الأساطير، فقد كانت تعبدها، ويتضح من المقطع الثاني أنها كانت عبادة عمياء. فحين جاء ذلك الشخص – الشاعر – ليقول لها الكلمات التي توقع المنطق في الفخ " ضاقت ذراعاً بتلك الأساطير التي تعبدها " لقد رأى الشاعر من وجهة نظره أن محاولة المحاكمة العقلية لتلك الأساطير من قبل هؤلاء الأشخاص ستوصلهم بأنفسهم إلى التوصل لعدم شرعيتها وإلى الضيق من تحكمها بهم، وإلى اكتشافهم لمدى الجريمة التي وقعوا بها. فتكون النتيجة أن تتمزق تلك الشخصية حياءً من نواطير الحقول الذين عدوا على أرضهم. وفي هذه القصيدة أيضاً يصوّر الشاعر صلة "الآخر" بالأرض فهم في سبيل إقامة وطن عليها خسروا دماءهم ولم يجدوا عليها وطناً وقد لجأ الشاعر هنا إلى استخدام صيغة وطن للأرض. وذلك لدلالتها المعنوية على الاتصال الإنساني مع الأرض. هذا الاتصال الذي لا يبدو أنه قد تحقق، فالوطن أمان واستقرار وصلة حميمة خاصة بالمكان، لكن "شولميت" لا تصفه سوى بـ " هذا الوطن الضاري "واستخدام صيغة الإشارة هنا يوحي بالانفصال عن الشخصية، فهي لم تستخدم صيغة تصل "الوطن" من خلالها بنفسها،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فضلاً عن أن وصفه بالضاري يلغي أي معنى للوطن هنا فكما قلت إن دلالة الوطن ذاتها تتجاوز دلالة الارض وتصب في الدلالة المعنوية التي تمثل عددا من القيم والمعايير والأحاسيس والعلاقات المترتبة عن التفاعل مع المكان والتي لم تتحقق للشخصية هنا فهي لا تريد ان تقدم المزيد من الدماء ليزداد الوطن حجر واستخدام لفظة حجر. ذاتها يحول الوطن عندها الى صورة للقسوة والموت فشخصيات الآخر الفردية عند درويش تفتقد لمعنى الحب والأمان أو حتى الارتباط بهذه الارض. التي لم يجمعهم بها إلا تعبئة عسكرية وأسطورية قادتهم من بلدانهم إليها حالمين بالمجد والبطولة.

وإلى جانب ذلك التصوير الذي اختاره درويش في شعره لموقف الأفراد من الأرض والأساطير التي جمعتهم بها يرد درويش في قصيدته " المزمور الحادي والخمسون بعد المائة "على ادعاءات الصهاينة أن القدس هي أورشليم. بكون القدس مهما اختلفت مسمياتها أرضه هو. والمزامير عبارة عن مجموعة من الأناشيد الدينية تنسب إلى داوود عليه السلام وعدد من الأنبياء " تبلغ مئة وخمسين مزموراً تعد كنز الشاعرية العبرية وقد تراكمت فيه نصوص مختلفة تتضمن أشعاراً وعظات وعظة وصلوات وتسابيح وقصائد في الإيمان وأخرى في تمجيد أورشليم، وأشعاراً في مناسبات تاريخية. ونصوصاً في انتظار المسيح أو التبشير به[1]" فكما كانت المزامير أناشيد يمجد بعضها اورشليم يضيف محمود درويش مزموره لينشد هو حبه لهذا المكان أيا كانت التسمية التي تطلق عليه يقول:

أورشليم التي ابتعدت عن شفاهي

المسافات أقرب

بيننا شارعان وظهر إله

وأنا فيك كوكب

---

[1] حسن ظاظا، الفكر الديني اليهودي، أطوار ومذاهب، ص ٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كائن فيك، طوبا لجسمي المعذب

أورشليم التي عصرت كل أسمائها

في دمي

خدعتني اللغات التي خدعتني

لن أسميك

إني أذوب، وإن المسافات أقرب

وامام المغنيين صك سلاحاً ليقتلني

والمزامير صارت حجاره

رجموني بها

وأعادوا اغتيالي

قرب بيارة البرتقال

أورشليم؟ التي أخذت شكل زيتونة

دامية

صار جلدي حذاء

للأساطير والأنبياء

وأنا فيك أقرب

في بكاء الشبابيك، طوبى

لإمام المغنيين في الليلة الماضية

وأمام المغنيين كان، وجسمي كائن

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأنا فيك كوكب[1].

في هذه القصيدة إلى جانب توحد الشاعر بالأرض، حين يكون كوكباً ظاهراً واضحاً متكوناً فيها. وحين تصب كل اللغات التي تسميها في دمه. رافضاً خداع اللغات ينتقد استغلال هذه المزامير وسيلة لتبرير سرقة الأرض. إذ جعل إمام المغنيين الذي أنشدها سلاحاً يقتل به صاحب الأرض وتصبح أناشيد الحب تلك حجارة يرجم بها وتستغل وسيلة لصنع حنين زائف خارج عن الحقيقة ليكون حنيناً معلباً. هذا الاستغلال للأسطورة لتبرير احتلال الأرض وقتل الإنسان الذي صار جلده حذاء للأنبياء والأساطير في الوقت الذي تكون فيه أورشليم زيتونه دامية والزيتون من النباتات التي ارتبطت عند الشاعر بالدلالة على التراث الفلسطيني. فضلا عن دلالتها على السلام فارض السلام باتت زيتونا جريحا حين ديس وجود ابنها بادعاءات الأساطير. تلك الأساطير والأناشيد التي لا تعطي الحق بالأرض لأنها تمثل ماضياً انتهى، فإمام المغنين كانت له كانت تلك الليلة الماضية وهو قد كان وانتهى،لكن يبقى هذا الإنسان، جسمه كائن فيها، ممثلاً الحاضر والتوحد معها، وعندما يجعل الشاعر نفسه كوكباً فليؤكد وضوح الارتباط والتواصل بين الأرض وصاحبها الحالي ... فذلك الماضي الذي يدعى الآخر أنه صاحب الحق به، لا يلغي حقيقة جلية حتى لتبدو كأنها حقيقة كونية ولا سيما حين يتحول الآن إلى عنصر كوني " كوكب"، وحينما يعمد الشاعر إلى أنها قصيدته بلفظة "هللويا" التي تنقلنا إلى حالة تقارب طقساً مقدساً.

- الصراع والخراب والتدمير:-

وفي ظل الصراع عبر الشاعر عن حالة من التلازم بين الطرفين المتصارعين على الأرض، تلازم متمثل بنمط من الوجود المتصف بالاعتداء والفتك من الطرف المحتل، والخوف والإصرار على الصمود والمواجهة من الطرف

---

[1] المزمور الحادي والخمسون بعد المئة، ديوان العصافير تموت في الجليل، ص ٢٨٧-٢٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المعتدى عليه ليكون الصراع موقفا لا مفر منه بين الطرفين، ونجد ذلك في قصيدته " الرباط" التي بدا فيها الصراع رباطاً يتحكم بالطرفين ويشدهما إلـــى البقـــاء معـــاً والمواجهة، فلا خيارات أخرى طالما قد وجدا سويا علـــى هـــذه الأرض ويصبـــح الإنسان الفلسطيني مرابطاً على أرضه في سبيل الاستقرار والبقاء عليها والحد مـــن تمكين العدو منها ... يقول:

لن نفترق

أمامنا البحار، والغابات

وراءنا، فكيف نفترق

يا صاحبي! يا أسود العينين

خذني! كيف نفترق؟

وليس لي سواك

لعلني سئمت مقلتيك

يا ظامئاً إلى الأبد

يا قاسياً إلى الأبد

لكنني بلا أحد

بلا أحد

فكيف نفترق

يا أجمل الوحوش، يا صديقي

ما بيننا سوى النفاق

والخوف من متاعب الطريق

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البحر أمامنا

والغاب من وراءنا

فكيف نفترق ؟[1]

ابتدأ الشاعر قصيدته بنفي الافتراق، وتأكيد الاستمرار في مواجهة تتأرجح بين خيارين: الرحيل المتمثل في البحار، والخوف وحياة وحشية قاسية يسود فيها الأقوى متمثلة بالغابات، وفي قول الشاعر "أمامنا البحار، والغابات وراءنا"، نستحضر مقولة القائد طارق بن زياد "العدو من أمامنا والبحر من وراءنا" والتي تؤكد ضرورة وحتمية المواجهة التي ستثبت وجود أحد الطرفين على الأرض، وبقي بعدها العرب ثمانية قرون في الأندلس.. أن استدعاء هذه المقولة يؤكد ضرورة فعل المواجهة في الموقف الجديد والذي سينتج عنه ثبات أحد الطرفين المتصارعين على الأرض المتصارع عليها.

ونلاحظ أن الشاعر قام بنوع من الاستبدال حين قال " أمامنا البحر " فجعل البحار في الأمام يوحي أنها الحل الأكثر قرباً وطرحاً لحل هذه الصراع بخصوص الطرف الفلسطيني لكن الربط بالمقولة التاريخية تجعلنا نرى أن الشاعر استبدل بالعدو البحار لتكون بدلالتها على الرحيل والنفي عدواً تنبغي مواجهته والانتصار عليه أيضاً معبراً بذلك عن رفض الرحيل.

وفي القصيدة نسمع صوت أحد الطرفين قلقا متحديا ومصرا على المواجهة ,ونرى صورة الآخر محتلة لموقع البطش والقوة الذي يمتلكه.لقد وضعنا الشاعر أمام نموذجين:

١-إنساني متمثل بصورة الشاعر

---

[1] ق. الرباط، د. أوراق الزيتون، ص ٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢-وحشي يمثل سلطات الاحتلال، وقد استغل الشاعر عناصر حسية في وصف أبعاد اثر هذا الوحش ,متمثلة في العين واليد والظماً والقسوة

وسنلحظ أن محمود درويش يعتمد في أكثر من موقع على استغلال دلالة العين واليد فالأولى تعكس حالة معنوية ونفسية تعبر عن الرعب والحقد والشر الذي يلحقه وجود العدو بالجانب المعنوي لحياة الناس حين عبر الشاعر عن السأم من المقلتين فضلا عن أنها تعبر عن الطبيعة النفسية المظلمة لهذا الوحش ولهذا وصفه الشاعر بأسود العينين

أما اليد فهي تشير إلى القوة والبطش وهي التي ألحقت الخراب والتدمير المادي بعناصر الحياة

وهذا التخريب المادي والمعنوي كان وراءه ظماً يشكل دافعا لتحريك عناصر التخريب والتدمير، ظماً دموي وقد ألحق الشاعر صفة القسوة بصفة الظماً لتكون عملية السعي الى الارتواء مؤلمة ووحشية، وهذا الظماً لن ينتهي ولن تنتهي قسوته، فهو ظماً أبدي، أي أن هذا الوحش " العدو " سيستمر في التخريب والتدمير، طالما بقي موجوداً ولذلك يدرك الشاعر أن الظماً الدموي لهذا الوحش قد يصيبه يوماً، وهذا ما قد يوصلنا إلى علاقة النفاق اللاحقة والخوف من متاعب الطريق. فالتعايش البنّاء بينهما مستحيل.وقد نزع الشاعر عن عدوه الصفات الإنسانية وكساه بهيئة وحشية، ليكون وجوده ممارسات خارجة عن القيم والمعايير والأخلاق الإنسانية، فيبرز عدم التكافؤ في هذا الصراع وقسوته. حين قام بين وحش وإنسان. ويسعى درويش في القصيدة إلى خلق مفارقة تحير القارئ في البدء حين وصف الوحش بأجمل الوحوش وبالصديق. واستخدم عبارات مثل: " ليس لي سواك " إلى جانب وحشية العيون واليد ومشاعر الخوف والنفاق ليقودنا إلى حياة المفارقات التي يجد نفسه فيها في ظل احتلال يمارس دور الدولة، هذه الدولة التي تضطهد شعبه مدمرة حياته.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولجأ الشاعر إلى ذات الأسلوب في التصوير في قصيدته " ؟" التي رسم فيها وحشية الاحتلال والاعتداء والتدمير الذي ألحقه بحياة الناس. وهي قصيدة قال الشاعر عنها أنها قيلت في الحرب، وقال عن موقف الصحف الإسرائيلية منها: "أذكر أن صحيفة "دافار" قبلا، وصفت قصيدة لي عن الحرب بأنها "طعن لأفضل ما لدى الشعب اليهودي من قيم"، فقلت (الدافار) (٩) إنكم أنتم الذين تشتمون شعبكم، فأنا أحتج على الغدوان والقتل والتدمير والتنفس من رئات الآخرين، فتقول لي: "نك تطعن أفضل ما لدى الشعب اليهودي من قيم" [١].

نستطيع اعتبار هذه القصيدة نوعا من خلع الأقنعة عن وجه الكيان الصهيوني وحقيقة وجوده على الأرض الفلسطينية،حيث باتت الحياة حربا مستمرة يشنها الكيان الصهيوني ضد الوجود الفلسطيني في سبيل بناء دولته ومجده يقول فيها:

عيناك يا صديقتي العجوز يا صديقتي المراهقة

عيناك شحاذان في ليل الزوايا الخانقة

لا يضحك الرجاء فيهما، ولا تنام الصاعقة

لم يبق شيء عندنا.. إلا الدموع الغارقة

قولي: متى ستضحكين مرة، وإن تكن

منافقة؟

كفاك يا صديقتي ذئبان جائعان

مصي بقايا دمنا،وبعدنا الطوفان

وإن سغبت مرة،لا تتركي الجثمان

وإن سئمت بعدها، فعندك الديدان

---

[١] محمد دكروب، حديث مع محمود درويش، مجلة القرية، عدد ١٠-١١، ص ٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

.....

كوني على أشلائنا، كالزنبقات العابقة

الغاب يا صديقتي يكفن الأسرار

وحولنا الأشجار لا تهرب الأخبار

والشمس عند بابنا معمية الأنوار

... ان الحياة خلفنا غريبة ومنافقة

فابني على عظامنا دار علاك الشاهقة

اسمع يا صديقتي ما يهتف الأعداء

أسمعهم من فجوة في خيمة السماء:

" يا ويل من تنفست رئاته الهواء

من رئة مسروقة

يا ويل من شرابه دماء

ومن بنى حديقة.. ترابها أشلاء

يا ويله من وردها المسموم"[1] !!

يستخدم الشاعر في هذه القصيدة ذات العناصر في قصيدته "الرباط" فنستطيع أن نلاحظ النموذجين، الإنساني والوحشي، والصورة الإنسانية والصورة الوحشية بعناصرها:

- العينين بدلالتهما على الحقيقة المظلمة لهذا المخلوق هذه الحقيقة المتكشفة من خلال هاتين العينين وما تخلقان من حالة رعب وخوف. وتشعان بالفزع الذي تنشره هنا وهناك وحياة النفاق والخوف.

---

[1] ق. "؟" أوراق الزيتون، ص ٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الكفين الدمويتين الباطشتين اللتين تنشران الذعر والتخريب والتدمير وتفتكـــان، "كفان ذئبيتان".

- الظمأ الدموي الذي لا ينتهي، ويستمر في امتصاص الضحية و التغذي عليـــها حتى فنائها، لقد لجأ الشاعر الى الأسلوب والصورة نفسها مع تعمق وتوسع فيها.

أراد الشاعر في هذه القصيدة وصف ماهية الحرب التي يمتطيـــها الكيـــان الصهيوني في سبيل ترسيخ وجوده وإقامة حياته على أنقـــاض وجـــود الآخريـــن والتي تمثل ماهية هذا الكيان أيضا. وهو يريد أن يقول: إن هذه الحرب لن توصـــل الكيان الى غايته، فهي لن تكون أبدا وسيلة لإقامة حياة، لأنها تتعـــارض تعارضـــا جوهريا مع الحياة نفسها. لقد أبتدأ الشاعر قصيدته بوصف هذه الحرب بـــالعجوز مرة، وأخرى بالمراهقة وصفها بالعجوز لأنها عقيم لن تنجب تلـــك الدولـــة التـــي ستستمر في الحياة للكيان الصهيوني وهي مراهقة لدلالة على طيش فعلها الدمـــوي والتخريبي والتدميري فضلاً عن دلالة هذه المرحلة على العجز عن تشكيل رؤيـــة منطقية وسوية للحياة فهذه الحرب حين تخاض، تدل على عدم وعي ومعرفة بأسس الحياة ومقوماتها للبقاء والاستمرار. لهذا كانت جميع الصور اللاحقة هـــي صـــوراً للفناء والخراب، وهذا ما ستقود إليه هذه الحرب لعلة أظهرها الشاعر فـــي نهايـــة القصيدة، وهي أن هذه الحرب لم تقم دفاعا عن حق بل قامت في ســـبيل ترســـيخ الاعتداء على حق الآخرين، وإقامة حياة طرف على وجود طرف آخر "تنفس هواء رئة مسروقة"، فتلك حياة ستؤول الى الفناء وان بدت موحية بأنها تعطي من صنعها حياة آمنة أو إنسانية، لأن عناصر وجودها فاسدة، فحتى الزهور التي فيها مسمومة، لأنها ارتوت بالأشلاء، فتلك حياة لن تستمر. لقد ختم الشاعر قصيدته بتأكيد النتيجـــة التي أعلنها في البداية، إن الحرب "عجوز" فوصف عجوز والخاتمة التي اختارهـــا الشاعر مقتبسة من مقولة لأحد أنبياء اليهود في توراتهم، تؤكد إيمـــان الشـــاعر أن مصير هذا الكيان الفناء والزوال وهو يحذر الوجود الصهيوني من الخاتمة ويعتـــبره معاديا للمبادئ اليهودية التي ادعى قيامه على أساسها، فرغم أن المقولة التي أوردها

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قد اقتبست من التوراة.إلا أنه وصفها "بهتاف الأعداء" لقد وقع الكيان الصهيوني في حالة عداء ذاتية وتناقض مع النفس دون وعي، تناقض سيقود الى الفناء. وقد وظف الشاعر حالة التناقض أيضا باستخدام وصفين متضادين "العجوز" و "المراهقة" للدلالة أيضا على التضارب الذي سيقود الى الفناء وفي القصيدة يتضح كره الشاعر لحقيقة الحرب فهي بشعة جدا وتزهر على الأشلاء، وقد أشار الشاعر في هذه القصيدة أيضا الى عدم التكافؤ في هذه الحرب والتواطؤ مع المعتدي هذا التواطؤ الذي جعل الشاعر في القصيدة السابقة "بلا أحد" وفي هذه القصيدة جعل الغاب يكفن الأسرار والأشجار لا تهرب الأخبار والشمس معمية الأنوار، والحياة غريبة ومنافقة. فضلا عن التكتم الإعلامي الذي تفرضه الدولة الصهيونية على ممارساتها ضد الفلسطينيين. فهناك توجه من العالم لغض الطرف عما يحدث على هذه الأرض والتغاضي عنه..

حتى أن عناصر الطبيعة بدت كأنها مشتركة في هذا التغاضي، وهذا يشير الى أن درويش يرى في هذا الكيان الصهيوني منفذا ووسيلة تخدم أطرافا أخرى فهو ممثل للقوى الاستعمارية الدموية التي خلقته، لكن درويش لا يتعمق في هذه المرحلة بإبراز هذا البعد لقيام الكيان الصهيوني، لأنه اكثر انشغالا بالمواجهة المباشرة معه.

وأشير الى أسلوب يلجأ إليه الشاعر في قصائده كثيرا وقد ظهر في القصيدتين السابقتين، وهو أبراز التفوق الانساني للضحية "الشاعر، الانسان الفلسطيني" على خصمها.. وقد عمد الشاعر الى المفارقة لإظهار هذا البعد، وهذه المفارقة تبدو في قوله: "يا أجمل الوحوش، يا صديقي" و"يا صديقتي العجوز، يا صديقتي المراهقة" فالصداقة مفهوم إنساني إيجابي اختاره الشاعر مسلكا لنفسه لتأكيد ميله الإنساني المسالم الذي ينفر من الطابع العدواني حتى مع كيانات متوحشة كتلك التي عبر عنها: وهذا يدل على ان الطابع العدواني ملازم للآخر الذي صنعه واتصف بالصفة المتوحشة، ولتعزيز هذا الجانب لجأ الشاعر الى خلق حالة من

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخطاب لا يظهر فيها سوى صوت الشاعر، في الوقت الذي يكون الطرف الآخر مجرد صورة تفيض عدوانية ودموية: والصوت الإنساني عند الشاعر يحتل مكانة شفافة في الدلالة على الجوانب الإنسانية. وهو حين يشير في بعض قصائده إلى صوت العدو يصفه بالنباح، فاللغة والصوت تمثل عند الشاعر نمط التواصل الإنساني وهذا الصوت هو كل ما يمتلكه الشاعر، ولعل الشاعر يصمت هذا الوحش لأنه على يقين من أن صوته إذا انطلق فسيكون أكاذيب وادعاءات..

نستطيع القول إن أكثر قصائد الشاعر لمست بطريقة ما نوعا ما من التخريب أو التدمير الذي سببه العدو. ولكني سأقف أخيرا عند قصيده "تموز والأفعى" التي تتناول أيضاً الإشارة إلى التخريب والخلل الذي ألحقه وجود المحتل بحياة الناس. وقد جاءت هذه القصيدة في ديوانه "عاشق من فلسطين" يقول فيها:

تموز مر على خرائبنا

وايقظ شهوة الافعى

القمح يحصد مرة اخرى

ويعطش للندى المرعى

تموز عاد، ليرجم الذكرى

عطشاً ... وأحجاراً من النار

فتساءل المنفي:

كيف يطيع زرع يدي

كفاً تسمم ماءاً بادي ؟

وتساءل الأطفال في المنفى

آباؤنا ملأوا لياليا هنا... وصفا

عن مجدنا الذهبي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قالوا كثيراً عن كروم التين والعنب

تموز عاد، وما رأنياها

وتنهد المسجون:كنت لنا

يا محرقي تموز... معطاءً

رخيصاً مثل نور الشمس والرمل

واليوم تجلدنا بسوط الشوق والذل

تموز... يرحل عن بيادرنا

تموز... يأخذ معطف اللهب

لكنه يبقي بخربتنا

أفعى

ويترك في حناجرنا

ظمأ

وفي دمنا

خلود الشوق والغضب[1]

خرج الشاعر في القصيدة عن أسلوب التجسيد الذي استخدمه في القصيدتين السابقتين لوصف الخراب والتدمير الذي يلحقه وجود الكيان الصهيوني بالإنسان وحياته، واستخدم رمزين يخدم توظيفها عدة مستويات متشابكة من الدلالة. للإشارة للخراب الذي أصاب حياة الناس وهذه المرة لم يشر الشاعر إلى الخراب المحسوس فحسب، بل طال الخراب والتدمير نظام الحياة ودورتها. وفي المستوى الأول استخدم الشاعر الرمزين بدلالتها الطبيعية ليشير إلى الإخلال بحركة أهم مظهر في

---

[1] ق. تموز والأفعى، د. عاشق من فلسطين، ص ١٠٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مظاهر الحياة البشرية الحضارية، ألا وهو مظهر الزراعة. وتموز في هذا المستوى هو أحد أشهر الصيف الذي ارتبط بموسم زراعي، موسم الحصاد، وهو اكثر شهود السنة حرارة. والأفعى استخدمت بدلالتها الطبيعية وهي حيوان معروف بسمه القاتل وملمسه الأملس وقدرته على التسلل بهدوء والغدر بضحيته، أما صلة الأفعى بتموز والزراعة والحصاد، فمن المعروف أن الأفاعي تخرج من جحورها في أوقات الحر الشديد وكثيراً ما يتعرض الفلاحون لسمها الغادر والقاتل أثناء عملية الحصاد. فتموز هو أحد مواسم الخير الذي يجلب معه الأفعى القاتلة. ففيه يجتمع الضدان استمرار حياة الناس بحصادهم القمح والغلال والموت الغادر الذي تأتي به الأفعى،وفي العادة ينتهي فصل القيظ وتعود الأفاعي إلى مخابئها. ولكن لم تسر الحياة ضمن خط سيرها الطبيعي، بل أشار الشاعر إلى خلل أصاب هذه الدورة الحياتية الطبيعية، ولاسيما أن الطابع الزراعي هو الغالب على حياة الناس في فلسطين، فتموز يرحل وتبقى الأفعى التي تحولت إلى رمز يدل على الخراب وخاصة عندما قرن بقائها "بالخربة" وهي لفظة صريحة في دلالتها على الخراب فتموز رحل ولم يترك الغلال، بل كل ما بقى هو الخرائب التي سكنتها هذه الأفعى كناية عن الوجود الصهيوني الذي ألحق الخراب بدورة الحياة الطبيعية للانسان الفلسطيني عندما سلب أرضه وعطل عمله وتموز حين يوقظ شهوة الأفعى فذلك تعبير يستغل نشاط الأفعى الفتاك في مواسم الحصاد ليجعل شهوة الأفعى هنا هي شهوة الدم التي تستيقظ في العدو الصهيوني، ولاسيما حين "يحصد القمح" وحصاد القمح عند درويش كثيراً ما يعني التعبير عن عمليات القتل الموجهة ضد الإنسان الفلسطيني الذي يرمز له الشاعر في أكثر من مكان بالسنابل والقمح، ويرمز إلى القتل بالحصاد لقد تبدل الحصاد من عنصر حياة إلى عنصر تخريب وتدمير.. ويستمر الشاعر في التعبير عن الخراب مستغلا البعد الزراعي الذي يمثل مفهوم الحضارة والإعمار وانبعاث الحياة والشاعر يصف الإنسان الفلسطيني في بعض قصائده "بالزارع الأول". لهذا يهتم بوصف الخراب من البعد الزراعي لأنه يمثل الخراب

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذي لحق بالفلسطينيين، وبالحياة بمفهومها العام والوجودي. ويطلق الشاعر سؤالا استنكاريا:

كيف يطيع زرع يدي. [1]

كفا تسمم ماء آباري؟

لقد عاد الشاعر إلى استخدام الكف عنصر تخريب يستخدمه العدو. وقد قرنها "بالسم" و"التسميم" وهذا يحيلنا إلى الأفعى التي يمثل السم العنصر القاتل فيها، فتلك الكف تمارس دور الأفعى حين تنشر السم في أهم عناصر الحياة "الماء". وتسميم الماء كناية عن تسميم الحياة نفسها ونلحظ أن الشاعر استخدم اليد حين ربطها بالأنا استخداما مغايرا فقد ارتبطت بالزرع "إعمار الحياة".

وهذا المستوى من الدلالة يتداخل مع المستوى الأسطوري لاستخدام الرمزين، فتموز معروف بالأساطير البابلية كإله للخصب وعودة مظاهر الحياة [2]

---

[1] المصدر السابق.

[2] يقول فراس سواح في كتابه مغامرة العقل الأولى بشأن ألوهية تموز أو "دموزي" ما يلي: دموزي إله راع تقدم الخطبة، "أنانا" آلهة الحب والخصب لدى السومريين وناقسه في ذلك الإله المزارع "انكمدو".... فقبلت دموزي وتزوجته... ولما كانت "أنانا" ألهة للخصب، فقد اقترن اسم زوجها أيضاً بقضية الخصب والزراعة دون أن يكون هو نفسه الهاً زراعياً، واعتبره كثيرون خطأ الهاً للخصب. والحقيقة فإن السبب في هذا الالتباس راجع الى الخطأ في مهم الطقوس الخاصة بدرام هبوط "أنانا" ومن بعدها عشتار للعالم الأسفل. فأنانا تهبط للعالم الأسفل في الأسطورة السومرية، وهناك تقبض عليها "اريشكيجال" آلهة ذلك العالم وتسلبها روحها ويموت "أنانا" تغيب مظاهر الاخصاب عن الطبيعة وتجف المزروعات وتزول الخضرة عن وجه الأرض فيمضي عبادها في حزن وندب وعويل حتى تقهر الموت وتصعد الى عالم الحياة مرة ثانية، ولكن هذه العودة مرهونة بشرط واحد هو أن ترسل بديلاً عنها للعالم السفلي فتقرر "أنانا" إرسال زوجها دموزي الذي تخطفه الأشباح التي رافقت أنانا في صعودها وتمضي به الى مملكة الموتى، ولكن "عشتار" وهي التسمية البابلية "لأنانا" هي التي تمضي لفك اسر دموزي من العالم الأسفل وقد اصبح اسمه تموز البابلي "تموز" ولدى غيبتها تغيب مظاهر الإخصاب من الطبيعة، وترجع ظافرة من الموت مصطحبة معها حبيبها تموز القتيل الى الحياة، فينقلب حزن العباد فرحاً واحتفالا بعودتها وعودة زوجها"، ص ٣٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الأفعى فقد رمزت لعدة دلالات متباينة، فقد رمزت عند القدماء إلى الشفاء والحكمة إلى جانب الشر وكونها رمزاً جهنمياً وتحت أرضي ودلالتها على العالم السفلي. كما أن رمز الأفعى له استخدامه في التعاليم الصهيونية.. وعند الشاعر يتقابل تموز ببعده الأسطوري المرتبط بدلالته الطبيعية على الأفعى بدلالتها الأسطورية على الشر وعالم جهنم والموت ودلالتها الطبيعية مع القتل وسكن الخرائب والتسلل الماكر ليكونا معا تعبيرا عن التضاد الذي أصاب حياة الناس ومواسم الخير فيها وليكون الوجود الصهيوني أفعى قاتلة يتعارض وجودها مع استمرارية الحياة والخصب وتكون سببا في التخريب فضلا عن الإشارة إلى التسلل الصهيوني المدمر إلى الأرض الفلسطينية ونسفه لطقوس حياة الإنسان الفلسطيني المسالمة.

وأشير في هذه القصيدة إلى رأي إبراهيم علان في دلالة تموز.فهو يرى أن تموز هو شهر الثورات العربية وهذا يعطيه بعدا إضافياً في الدلالة يقول: "لقد ارتبط تموز في أذهان الشعراء العرب في فلسطين المحتلة بالثورات في الوطن العربي. فثورة مصر في تموز والعراق على الملكية في تموز ١٩٥٨.. ومن هنا فان شعراءنا في فلسطين إذا تحدثوا عن تموز فانهم يتحدثون عن الثورة العربية في كل جزء من الوطن العربي"[1] ورأيه هذا قد يعززه تساؤل الأطفال في النفي عن المجد الذهبي، وانتظار المسجون للحرية، والمسجون قد يكون من بقي في داخل الأرض، فالمنفي في الخارج وحبيس الكيان الصهيوني ينتظران أن يصنع لهما تموز شيئا ربما كناية عن الأمل الفلسطيني بالعون والمد القومي ليصنع ثورة جديدة تحرر الشعب الفلسطيني من وجود الأفعى وتعيد الحياة الطبيعية. لكن تموز يرحل بمعاطف اللهب، سواء أكانت معاطف اللهب هي القيظ والحروب التي أفرزت هذه الأفعى وأسكنتها هذه الأرض، لتنتهي حروب العالم وتبقي إسرائيل، أو كانت لهب الثورات العربية التي انتهت ولم تحرر الأرض الفلسطينية من الوجود الصهيوني

---

[1] إبراهيم علان، الشعر الفلسطيني تحت الاحتلال، ص ١٠٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عليها. لقد استقر الوجود الصهيوني على الأرض الفلسطينية ليسكن الظماً في حناجر الناس والشعراء خاصة فتطلب هذه الحناجر الحرية والصمود ليبقى الدم يغلي شوقا وغضبا رفضا لوجود هذه الأفعى – الكيان الصهيوني.

– ممارسات العدو:

وفي أجواء التخريب والتدمير هذه كان للعدو ممارسته ضد الإنسان الفلسطيني عبّر الشاعر عن أشكال عدّة منها ونستطيع أن نلتقط تلك الممارسات قصيدة (عن إنسان) التي وصف الشاعر بها تلك الممارسات:

وضعوا على فمه السلاسل

وربطوا يديه بصخرة الموتى

وقالوا أنت قاتل

أخذوا طعامه، والملابس، والبيارق

ورموه في زنزانة الموتى،

وقالوا أنت سارق

طردوه من كل المرافئ

أخذوا حبيبته الصغيرة

ثم قالوا أنت لاجئ

يا دامي العينين والكفين

إن الليل زائل[1]

في هذه القصيدة بدت ممارسات القتل والاحتلال والتشريد والسجن والقمع , إلى جانب التزييف وقلب الحقائق وإظهار الصحية في ثوب الجاني.وتناقض واقع

---

[1] ق. عن إنسان، د. اوراق الزيتون، ص ١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا الإنسان مع الصور التي يختارها العدو له والتي تهدف الى تضييع حقوقه وإلغائها. ونلاحظ أن الشاعر عبر عن الضحية بصيغة المفرد وعن الجاني بصيغة الجمع، في إشارة الى عدم التكافؤ ووحدة هذا الإنسان في مواجهة خصمه وكما استخدم الشاعر في بعض القصائد السابقة العين واليد في وصف شخصية العدو وصورته، لجاء إليهما هنا، في وصف الضحية إلا أنها دامية العينين والكفين أمام تلك العيون السوداء واليدين الباطشتين السامتين لقد احتلت هذه الممارسات مساحات واسعة من قصائد درويش فهي صورة معاناة الناس وأوجاعهم. ولعل أبرز تلك الممارسات هي طرد الإنسان من أرضه وسلبها ونفيه وتشريده..ولقد عبر الشاعر عن هذا الجانب من زاوية الإنسان الفلسطيني في الأغلب معبرا عن حال أبناء المنفى والتشتت الذي طرأ على الأسرة الفلسطينية والتمزق الذي سببه خروج البعض وبقاء الآخر كما في قصيدته٠٠"رسالة من المنفى"[١]. والتضييق في العيش والمطاردة في الرزق لدفع الناس الى الرحيل كما في "بطاقة هوية"[٢] وقد سعى درويش في قصائده الى حث الناس على البقاء ورفض الرحيل ومقاومته كما في قصائده "أبي"[٣] و"مطر" [٤] بل كانت بعض قصائده دعوة لعودة من خرجوا مثل قصيدته"في انتظار العائدين"[٥]..ولكن صورة العدو ندر ما بدت في تعبير الشاعر عن عملية النفي نفسها. ولا نستطيع الإشارة إليه إلا في قصيدة واحدة جاءت في آخر دواوين هذه المرحلة والتي وصفت الطريقة التي اختارها العدو للتعامل مع أولئك الذين يحلمون بالعودة ولاسيما بعد هزيمة ١٩٦٧ وهي تعبر عن تكريس العدو لأسلحته لتثبيت واقع المنفى وحالة النفي في حياة الفلسطينيين اللاجئين وإغلاق باب العودة بالنار أمام اللاجئين الذين حاولوا التسلل في قصيدته"الجسر"

---

[١] د. أوراق الزيتون، ص ٣١.

[٢] بطاقة هوية، ص ٧١.

[٣] ديوان عاشق من فلسطين، ص ١٣٨.

[٤] د. عاشق من فلسطين، ص ١٠٩

[٥] د. عاشق من فلسطين، ص ١٠٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التي صورت ممارسة وحشية دموية ضد حلم العودة ومحاولة الاتصـــــال بـــأرض الوطن من جديد يقول:

مشيا على الأقدام

أو زحفا على الأيدي نعود

قالوا:

وكان الصخر يضمر

والمساء يد تقود

لم يعرفوا أن الطريق إلى الطريق

دم وقصيدة وبيد

كل القوافل قبلهم غاصت

وكان النهر يبصق ضفتيه

قطعا من الحم المفتت

في وجوه العائدين

....

لن يمر العائدين

حرس الحدود مرابط

يحمى الحدود من الحنين

(أمر بإطلاق الرصاص على الذي يجتاز

هذا الجسر.هذا الجسر مقصلة الذي رفض

التسول تحت ظل وكالة الغوث الجديد

والموت بالمجان تحت الذل والامطار , من

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يرفضه يقتل عند هذا الجسر، هذا الجسر

مقصلة الذي مازال يحلم بالوطن)[1]

لقد تحول طريق العودة من ذل المنافي طريقا للموت الذي يحرس فيه جنودا الاحتلال الحدود، وتحول الجسر مقصلة تقتل الحلم والحالم. والقصيدة بعمومها تعبر عن عجز الفلسطيني المهزوم الذي مارست المنافي دورها في هزيمته الى جانب هزيمتها هي, عن الوصول الى الأرض دون الخروج من هزيمته وذله. لقد تمكن العدو من تثبيت وجوده على الأرض لهذا يسعى الى تثبيت اللجوء كحالة جديدة تحكم الوجود الفلسطيني.وهذه القصيدة هي تعبير عن البعد الدموي للعدو بصورة اعمق لذلك سأعود إلى تناولها في مكان آخر..

إلى جانبها أشير إلى قصيدة "بطاقة هوية" التي وصفت حالة الاستيلاء على الأرض الفلسطينية والتضييق في العيش على الفلسطيني والتي جاء فيها الخطاب من الشاعر على لسان الفلاح ضد العدو المغتصب بحس حماسي في مرحلة مبكرة من شعر درويش معبرة عن الانتماء القومي العربي الذي يعول عليه الشاعر في موقفه المتحدي لذا وصف نفسه بالعربي وجعلها نقطة تحديه الذي يواجه بها خصمه وكانت تفاصيل حياته وشكله تعبر عن انتمائه واعتزازه بعروبته وكان من الطبيعي أن يلجأ الشاعر الى هذا التباهي بالبعد القومي ففيه يجد حماية له واملا، فضلا عن مواجهة محاولة جر العرب الى الانتماء الى الجنسية الإسرائيلية وشقهم عن انتمائهم الحضاري لهذا جاءت القصيدة معبرة عن رفض أي انتماء غير عربي، لذلك كانت قصيدته بطاقة "هوية تؤكد عروبته أمام قومية عربية يريد العدو فرضها. الى جانب استمرار الشاعر بالانتماء الى هذه الارض الذي لا يلغيه سلبها او مشاق الحياة وصعوبة تحصيل لقمة العيش في ظل حكومة الاحتلال التي لم تتمكن من المس من

---

[1] ق. الجسر، د. حبيبتي تنهض من نومها، ص ٣٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كرامة الفلاح وإصراره على الصمود الى جانب رفضه لان يكون معتـــدى عليـه يقول:

انا عربي

سلبت كروم اجدادي

وارضا كنت افلحها

انا وجميع اولادي

ولم تترك لنا..ولكل احفادي

سوى هذي الصخور

فهل ستاخذها

حكومتكم.. كما قيل؟

اذن

سجل يراس الصفحة الاولى

انا لااكره الناس

ولا اسطوا على أحد

ولكني.. اذا ماجعت

اكل لحم مغتصبي

حذار..حذار.. من جوعي

ومن غضبي!!

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأشير الى أن الشاعر قد عبر عن الاعتزاز بهذا الانتماء وبعده الحضـــاري في اكثر من موقف وخاصة قبل هزيمة ١٩٦٧ بأسلوب يميل دائما الـــى الحماســـة والثقة بهذه الهوية العربية يقول في قصيدته "نشيد" من ديوان "عاشق من فلسطين":

سنخرج من مخابينا

وسيشتمنا اعادينا

ولا..همج هم..عرب

نعم عرب.

ولا نخجل

ونعرف كيف نمسك قبضة المنجل

وكيف يقاوم الأعزل

ونعرف كيف نبني المصنع العصري

والمنزل[1]

لقد جاء الاعتزاز بالانتماء مواجهة للازدراء الحضاري الذي يمارسه العدو فنحن أمام موقفين موقف المهانة التي يكيلها العدو وعلى هـــذا الإنســـان المـــهزوم وموقف الشاعر الذي نلاحظ أن لجأ هنا الى تسمية الأعداء صراحة ليكون الاعتزاز والعودة الى الانتماء القومي العربي ردا على هذا العدوان ومواجهة له وافتخار أمام تعاليه فقد اسند الشاعر انتماءه هذا الى معطيات حضارية سمتها الإعمار والشـجاعة والقدرة على أن يكون هذا الإنسان ندا لعدوه..

---

[1] ص ١٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

*** الممارسات الدموية للعدو الصهيوني:**

لقد كانت بصمات العدو في قصائد الشاعر اكثر وضوحا عند التعبير عن هذه الممارسات فإلى جانب النفي وجد العدو في عملية الإبادة الدموية ذاتها حلا أجدى لإخماد وإلغاء صاحب الحق حتى لا يبقى شاهدا أو مقاوما لهذه الاعتداء المسوغ بادعاءات باطلة أساطير زائفة تزعم أن لاوجود لصاحب حق على هذه الأرض..وقد عبر الشاعر في قصائده عن هذه الممارسات مرة ضمن الإطار العام لعمليات التخريب والتدمير الذي مارسه العدو كما رأينا فيما سبق، ومرة من خلال ارتباط هذه الممارسات بحوادث أو مواقف من حياة الإنسان الفلسطيني. ونحن في الغالب نجد أنفسنا أمام عملية القتل نفسها لا القاتل الذي عادة يكون أطيافا تختفي وراء المشهد الدموي.مثل ما نجد أنفسنا في قصيدة "وعاد في كفن" حيث نجد القتل موجها ضد طفل, لم يظهر القاتل لكن الضحية البريئة دلت على بشاعة جرمه. ووحشية القاتل وجنون ممارسته الدموية فالشاعر يجعلنا وجها لوجه أمام طفل احرق الرصاص وجناته. ويقصر عن ذكر الفاعل. لأنه سيكون معلوما لكل قارئ. فكان الجاني بطبعه الإجرامي والدموي بات اشهر في أن يشار إليه. واقل إنسانية فيعف الشاعر عن ذكره وهذا أسلوب يلجا إليه الشاعر في اغلب الحوادث التي يصفها فهو يضخم الضحية ويعلي منها، ويقوم الجاني ويقصيه ويبقى فعله الذي سيدل بطبيعة الحال عليه. لقد نقل لنا الشاعر في القصيدة إحساساً بجو عاماً يسود فيه توقع رصاص العدو الدائم التهديد لحياة الناس التي بدت فاقدة لعوامل الاستقرار والامان وبات الموت والأصح (القتل) حالة متوقعة دائما..لقد باتت التوابيت مستقر إحياء الشاعر كما يقول في قصيدة أخرى يقول في "وعاد في كفن":

يا أمه

لا تقلعي الدموع من جذورها

خلي ببئر القلب دمعتين

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد يموت في غد أبوه..أو أخوه

أو صديقه أنا

خلي لنا..

للمميتين في غد لو دمعتين..دمعتين

يحكون في بلادنا عن صاحبي الكثير

حرائق الرصاص في وجناته

وصدره.. ووجهه

لا تشرحوا الأمور

أنا رأيت جرحه

حدقت في أبعاده كثيرا..

"قلبي على أطفالنا"[1]

ويقول في قصيدة "رباعيات":

في توابيت أحبائي. اغني

لأراجيح أحبائي الصغار [2]

وفي قصيدته رباعيات جعل الشاعر القتل غريزة في العدو فوصفه بشـــهوة السكين "الشهوة الدموية" لتكون هذه الممارسات في مقام المطلب الحياتي لهذا العـدو والذي بممارسته القتل يشبع حاجة عنده يقول:

شهوة السكين لن يفهمها عطر الياسمين

---

[1] ق. وعاد في الكفن، د. أوراق الزيتون، ص ٢٣.

[2] ق. رباعيات، د. أوراق الزيتون، ص ٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحبي وحبيبي لا ينام[1]

ونستطيع أن نستشف من قصائد الشاعر سمات تميز هذه الممارسات وكيفية القيام بها. ومن أبرز القصائد التي تناولت هذا الجانب في هذه المرحلة: مجموعة "أزهار الدم" وقصيدة "وجندي يحلم بالزنابق البيضاء" وقصيدة "الجسر". وقد حوت مجموعة أزهار الدم عدة قصائد قيلت في مناسبة مرور ما يقارب عشر سنوات على مجزرة كفر قاسم وهذه القصائد هي: مغني الدم, حوار في تشرين , الموت مجانا, القتيل رقم ١٨, القتيل رقم ٤٨, عيون الموتى على الأبواب..

ونلحظ أن هذه القصائد جاءت في مرحلة ما بعد هزيمة ١٩٦٧, ربما للتذكير بوحشية العدو وفضح ممارساته الإجرامية أمام العالم. خاصة أن جريمة كفر قاسم كان العدو قد فيها لجأ إلى تعتيم إعلامي شديد عليها.ولقد جعل الشاعر نفسه مغنيا للدم في مجزرة كفر قاسم ليفتح أبواب المجزرة على الجهات الأربع ولتكون الضحايا أوتاره التي يعزف عليها مذكرا بالجريمة والمجرم وضرورة صون روح الضحية وفيما يلي سأتناول مقاطع من القصائد التي تظهر القتل وكيفية ممارسته في اكثر من جانب. يقول في قصيدة "مغنى الدم" من مجموعة أزهار الدم:

كفر قاسم

قرية تحلم بالقمح, وأزهار البنفسج

بأعراس الحمائم

...

احصدوهم دفعة واحدة

احصدوهم..

...

---

[1] ق. رباعيات، د. أوراق الزيتون، ص ٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

... حصدوهم

...

آه يا سنبلة القمح على صدور الحقول [1]

وفي قصيدة ((القتيل رقم ١٨)) من المجموعة نفسها:

أوقفوا سيارة العمال في منتصف الدرب

وكانوا هادئين

وأدارونا إلى الشرق..وكانوا هادئين

...

يا حبيبي..لا تلمني

قتلوني..قتلوني

قتلوني.. [2]

وفي قصيدته (الجسر) يقول:

ولم يتم حديثه,إذ صاح صوت في الطريق : تعالوا

وصوت طقطقة البنادق

لن يمر العائدون

حرس الحدود مرابط

يحمي الحدود من الحنين

"آمر بإطلاق الرصاص على الذي يجتاز هذا الجسر....."

---

[1] ق. نغني، الدم، د. آخر الليل، ص ٢٠٤.

[2] ق. القتيل، رقم (١٨)، د. آخر الليل، ص ٢١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الطلقة الأولى أزاحت عن جبين الليل

قبعة الظلام

والطلقة الأخرى

أصابت قلب جندي قديم

والشيخ يأخذ كف ابنته ويتلوا

همسا من القرآن سورة

وبلهجة كالحلم قال:

عينا حبيبتي الصغيرة

لي, يا جنود ووجهها القمحي لي

لا تقتلوها. واقتلوني

...

وبرغم أن القتل سهل كالتدخين

لكن الجنود "الطيبين"

الطالعين على فهارس دفتر

قذفته أمعاء السنين

لم يقتلوا الاثنين

كان الشيخ يسقط في مياه النهر

والبنت التي صارت يتيمة

كانت ممزقة الثياب

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وطار عطر الياسمين[1]

وفي قصيدة "جندي يحلم بالزنابق البيضاء" يصف كيفية ممارسة للجريمـــــة بلسان الجندي نفسه. وموقفه هو من هذه الممارسة:

وما رأيت؟

رأيت ما صنعت

عوسجة حمراء

فجرتها في الرمل..في الصدور.. في البطون

وكم قتلت؟

يصعب أن أعدهم

لكني نلت وساما واحدا

....

سألته: حزنت؟

أجابني مقاطعا: يا صاحبي محمود

الحزن اطير أبيض

لا يقرب الميدان. والجنود

يرتكبون الإثم حين يحزنون

كنت هناك آلة تنفث ناراً وردى

وتجعل الفضاء طيرا اسودا. [2]

---

[1] ق. الجسر، د. حبيبتي تنهض من نومها، ص ٣٥٤-٣٥٦.

[2] ق. جندي يحلم بالزنابق البيضاء، د. آخر الليل، ص ١٩٢-١٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نستطيع أن نتلمس من المقاطع السابقة الكيفية التي عبر بها الشاعر عن أسلوب القتل. ففي قصيدته "مغني الدم"و"القتيل رقم ١٨" قام الشاعر بعملية دمج للبعد التوثيقي للجريمة بالبعد الفني حين أشار إلى سيارة العمال والى صيغة أمر إطلاق النار[١]. والشاعر في هذه القصيدتين عمد إلى إغفال القاتل بل حتى تفاصيل الجريمة. واعتمد بعض الإشارات الإيحائية التي تدخلنا في قلب المشهد الدموي،ففي قصيدة "مغني الدم" يطلق الشاعر رائحة الدم من أوتاره لينقلنا إلى مشهد القرية. منظر قرية مسالمة تحلم بالقمح والبنفسج وبالأعراس وتلك إشارات إلى عناصر الحياة الضرورية والجمالية. ثم بعد هذا المشهد يترك الشاعر في السطر الشعري فراغاً يترك للقارئ تصور ما قد يقال فيه: "هذا الصمت يحمل أحداثاً ستشوه هذا المشهد ونكون نحن في حالة انتظار، ولقد لجأ الشاعر إلى نوع من الصمت قبل إطلاق صوت القاتل الذي ألقى أمر القتل "ليتعطل صوت المغني ويقيم الشاعر فصلاً بين الصوتين وتعارض دورهما فحين كان ذلك يشدو للحياة والقرية وسيرتها المسالمة ثم ينقطع فهذا يعني انقطاع تلك الحياة وتجنب الشاعر وصل صوته بصوت الجاني الذي سيؤدي دور تدمير مشهد القرية الحي والمسالم ...

فالصوت في القصيدة هو الذي يتحرك: صوت الشاعر حياة، صوت العدو موت، ويظهر الآن المشهد الذي استعاره الشاعر من رواية أحد من شهدوا المجزرة وهو أمر الحصاد، ففي الجانب التوثيقي وجه الأمر بإطلاق الرصاص بصيغةً "أحصدوهم"، وفي الجانب الفنّي وكما ذكرت سابقاً لجأ الشاعر كثيراً إلى صيغة الحصاد للتعبير عن القتل الواقع على الشعب الفلسطيني الذي اختار له أن يكون قمحاً وسنابل وذلك ولأن صيغة الحصاد تعبر عن غزارة وقوع الضحايا تحت انهمار الرصاص لأن القمح حين يسقط على الأرض تسقط تلك الحبيبات لتنمو سنابل جديدة.

---

[١] وردت تفاصيل الجريمة في كتاب محمود درويش، يوميات الحزن العادي، تحت عنوان من يقتل (٥٠) عربياً يخسر قرشاً، ص ١٠٤-١٠٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يأمر العدو بالحصاد دفعة واحدة ثم يؤكد الأمر بإعادته، فلا مجال للتردد في التنفيذ. ونلحظ أن الشاعر جعل عبارتي الأمر بالقتل متلاحقين، ولم يترك فراغاً بينهما فالأمر خاطف ولا يترك مجالاً للضحية للفرار أو للتدبر فيما سيحل بها، بعد الأمر يترك الشاعر فراغاً، ثم يأتي بالنتيجة " حصدوهم " ليكون الأمر قد نفذ وعملية القتل قد تمّت، والشاعر بين الأمر والنتيجة،يسقط تفاصيل الحدث فأحجم عن وصف زخ الرصاص وتساقط الضحايا، فإلى جانب ما يؤديه ذلك من خدمة لجمال فنيّة الصورة وإشباعها بالإيحاء، فإنه يمثل موقفاً يبتعد فيه الشاعر أو المغني عن الصور المشوهة التي يتقن العدو صنعها تعبيراً عن النفور من الجريمة والمجرم، ثم يعود الشاعر لترك فراغ يترك فيه للقارئ مجالاً لتصور الحدث والدماء والضحايا.ويمثل حيزاً يتيح لصوت الشاعر العودة والظهور من جديد مبتعداً فيه مرّة أخرى عن الالتقاء بصوت العدو فهو لجأ لبناء حاجز بين الصوتين يمنع قربهما أو دمجهما، ليعود المغني بعد ذلك بصيغة الرثاء لتلك السنابل التي وقعت على صدر الحقول واستخدامه لهذه الصيغة "السنابل" فيه تحجيم لقوة فعل العدو في ممارسة الإبادة ضد الشعب الفلسطيني فحين تقع سنبلة القمح على صدر الحقول فهذا رغم الآه التي أطلقها يعطي الأمل بأن حبات القمح ستعود سنابل أخرى.

وفي "القتيل رقم ١٨" يلجأ الشاعر إلى ذات الأسلوب من إغفال الجاني وتفاصيل الجريمة ويترك لروح الضحية أن تتحدث، مستعيراً أيضا سيارة العمال كإحدى العناصر التوثيقية فضلا عن أنها تخدم الدلالة على كدح الضحية ودورها الاعماري في بناء الحياة، الذي يظهر القاتل ليعطله فالعدو حين يوقف سيارة العمال فكأنه يوقف أعمار الحياة، وتصف الضحية الحالة النفسية للقتلة فنحن أمام مجموعة تصفها الضحية بأنهم كانوا هادئين. والقتل بهدوء هي الحالة التي يمارس العدو جريمته بها في كل قصائد الشاعر لتعكس نوعا من الاستهتار بحياة الضحية التي تبدو وكأنها خلقت متهيئة لتقتل، وهذا الهدوء يعكس انسجاماً كاملاً بين المجرم والجريمة وغياب العنصر الإنساني في محاكمة القاتل لفعله الإجرامي بل يصبح

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التعاطي الإنساني مع هذا الفعل إثماً كما عبر الشاعر عن ذلك على لسان الجنـــدي في قصيدته " جندي علم بالزنابق البيضاء. "ورغم إخفاء الجاني في قصيده " القتيـل رقم ١٨" إلا آن الضحية تشير إليه بضمير الغائب مسنده إليه فعل القتل مع تكـــرار الصيغة والتأكيد عليها لتكون شاهدا على المجرم ونستطيع القول أن إغفال الجـــاني إلى جانب تقزيمه أمام الضحية وإبراز الجريمة وأثرها على حياة الناس يعبر عـــن موقف يؤكد فيه الشاعر معاداة الفعل الإجرامي، وأن أصل العداء لا يقـــوم علـــى موقف متخذ ضد الآخر بل هو عداء موجه ضد فعله الإجرامي الذي يخرب عناصر حياة هذا الإنسان: هذا الفعل الإجرامي الذي يظهره الشاعر على أنه العنصر الـــذي يقيم عليه الكيان الصهيوني أسس وجوده فمثلا أشار في قصيدته"؟" إلـــى أن العـــدو يبني دار علاه على عظام الناس. وهنا يسخر الشاعر حين يبارك مجد الأعـــداء لان هذا المجد قام على أسس تتناقض مع المعايير الإنسانية والأخلاقية وحتى الحياتيـــة فالجريمة تحولت إلى ضرورة وجودية لقيامه ويتلازم وجوده معها بل إن هذا الفعل الإجرامي وما كرس في سبيله يعكس تعبئة مجنونة في سبيل الجريمة ضد عنـــاصر ضعيفة فالعدو يفتح قرية ويسفح دم الأطفال:

أنى أباركه بمجد يرضع الدم والرذيلة

أهنئ الجلاد منتصراً على عين كحيلة.....

مرحى لفاتح قرية !.. مرحى لسفاح الطفولة[1]

وفي سبيل هذا المجد صار القتل بطولة يكافئ عليها العدو بالأوسمة كما فـــي قصيدة "جندي يحلم بالزنابق البيضاء" الجندي الذي يطلق رصاصه مستعراً. وفـــي قصيدة "الجسر " نشعر أننا أمام حاله أخرى من احتراف القاتل لجريمته،

بل تحول القتل من حرفة إلى متعة. قد وصف الشاعر القتل عنـــد الجنـــود بالقصيدة إنه سهل كالتدخين، ليعكس لنا بعد الاحـــتراف والتوحـــد مـــع الجريمـــة

---

[1] الموت مجاناً، د. آخر الليل، ص ٢٠٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والاستمتاع بها مشابها لتوحد المدخن مع سيجارته واستمتاعه بها. وفـــي القصيـــدة نرى الجنود وهم يمارسون جريمتهم بأكثر من شكل فرغم إن الأمر جاء بـــإطلاق الرصاص إلا أنه يطلق الرصاص ولا سيما على الجندي القديم مرة، ومـــرة يلقـــي العجوز من على الجسر، وأخرى تغتصب الفتاة،لتكون تلك ألوانا من القتل يمارسـها القاتل بتلذذ منطلقاً من نزعه إجرامية غريزيه لا تهتز بقسوة فعلها الدموي. والـــذي قام بين عنصرين غير متكافئين عنصر مسلح "العدو" وعنصر اعزل. وأشير إلى أن الشاعر في قصيدة "الجسر" اظهر العدو وأشار إلى الجنود في ارتكابـــهم جريمتـــهم وهذه المرة الضحايا من خارج الأرض يسعون إلى العودة إليها وفي الطريق هنـــاك أسباب كثيرة للموت. لكنه جاء بأيدي الجنود، ليؤكد الشاعر الآن حقيقة تهتم بوجـود حاجز بين الإنسان وأرضه متمثل بهؤلاء الجنود الذين خلقهم دفتر أخرجته أمعـــاء الأساطير. ونحن أقرب إلى حالة تعريف وتوضيح بالعدو الفعلي للإنسان الفلسطيني حين وجد في عالم مفتوح .....

إن القتل الذي مارسه العدو ضد الإنسان امتد عند الشاعر ليتحول إلى اعتداء على نظام الحياة نفسه إذ نرى القتل يقع على عناصر طبيعية بتمثيلها للحياة العامرة والتي تبدو متفاعلة مع الإنسان "الضحية" يقول في قصيدة "الموت مجاناً "

كان الخريف يمر في لحمي جنازة برتقال

قمرا نحاسياً تفتته الحجارة والرمال ...

فلترفعي جيدا إلى الشمس تحنت بالدماء

لقد تمت مجزرة قاسم في شهر تشرين أي في فصل الخريف وهذا الـــترابط الزمني يؤدي دوراً في توحيد النهايات أو الموت، فمجزرة كفر قاســـم تنـــهي دورة حياة إنسانية، والخريف ينهي دورة حياة طبيعية وهما ألان متمازجتان فهذا الخريف يمر في اللحم، إبرازاً للتوحد بين الطبيعة والإنسان؛ هذا التوحد الذي أضفي عليـــه طقس جنائزي، فالتوحد الآن في ظل الموت، وحين تكون الجنازة، جنازة برتقـــال،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعود الشاعر لدمج العنصرين الإنساني والطبيعي فالجنازة إحدى الطقوس البشـــرية والبرتقال رمز من الطبيعة مرتبطة بالحياة الزراعية في فلسطين يستغله الشاعر في اكثر من موقع ليربطه بالموت فمثلا في قصيدته المزمور الحادي والخمسون بعـــد المئه. يعاد اغتيال الشاعر قرب بيارة البرتقال الذي بلونه المصفر يقترب من ألـوان الخريف والغروب الذي يشبع الإحساس بانتهاء دورة حياة إنسان أو يـــوم أو ســـنة فتعيش الطبيعة والإنسان في ظل الجريمة بأثواب الطقوس الجنائزية.

ولا تمتد الحال الى طبيعة الأشياء فحين يأتي الليل مخفيا الجريمة ســـتكون عناصره ميتة وقاسية، ربما كالمجرم، فالقمر نحاسي بارد قابل للتفتيت، وتقف فـــي المقابل الشمس التي تفضح الجريمة، يتعمق فيها الجانب الإنساني وذلك حين تشترك مع البشر في "الحناء" وتكون حنتها الدم، لتشهر الجريمة وتعلن عنها وهـــي حيـــن تلطخ بتلك الدماء، تبدو هي الأخرى ذبيحة، وفي قصيدته "القتيل رقـــم ١٨" يـــبرز الترابط بين تغير دورة حياة الطبيعة والإنسان مع وقوع الجريمة:

غابة الزيتون كانت مرة خضراء

كانت.. والسماء

غابة زرقاء.. كانت يا حبيبي

ما الذي غيرها هذا المساء ؟

.....

كان قلبي مرة عصفورة زرقاء..يا عش حبيبي

ومناديلك عندي، كلها بيضاء، كانت يا حبيبي

ما الذي لطخها هذا المساء ؟

...

غابة الزيتون كانت دائما خضراء

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كانت يا حبيبي

إن خمسين ضحية

جعلتها في الغروب

بركة حمراء.. خمسين ضحية [1]

في المقطع الأول نجد أنفسنا أمام عناصر من الطبيعة، غابة الزيتون،والسماء الزرقاء وقد كانت جميعها تتصف بخصائصها الطبيعية قبل هذا المساء الذي بمجيئه تغيرت سماتها. وفي المقطع الثاني نلتقط عناصر إنسانية. قلب ومناديل وقد كانت حية ونقية قبل هذا المساء، فالقلب حين شبه بعصفورة كان ذلك توصيفا لحركته النابضة المنطلقة شبيهة بعنفوان الطائر وحرية حركته وانطلاقة في الأفق وحين اختار الشاعر اللون الأزرق لهذا العصفور فقد قام بعملية تقريب لونية بين العنصر الإنساني والطبيعي فالسماء زرقاء والقلب عصفورة زرقاء، هذا التوحيد بين القلب والسماء يرمز إلى التواصل بحالة من المثالية والتسامي بين الوجود الإنساني والطبيعي فهو اتصال يمثل حالة من الصعود لانه مرتبط بالإعمار و الحياة. ويربط الشاعر بين العنصرين أيضا بتوحيد البعد الزماني الذي يقع حينه التغير في طبيعة تلك العناصر، زمن المساء، الذي يؤدي دلالتين هنا: دلالة توثيقية إذ تمت المجزرة في وقت متأخر. ودلالة رمزية تجعل من الجريمة حالة من الأفول، أفول الصباح حين عاش الناس بسلام، للدخول في ظلمة الليل عندما أسدلت الجريمة أستارها على حياة الناس. وفي هذه القصيدة أشار الشاعر إلى سيارة العمال، التي مثلت حركتها حركة الحياة. فعند خروج الناس إلى العمل كان الصباح وكانت الطبيعة حية، وحين أوقفت هذه السيارة، عطلت الحياة وتشوهت عناصرها وساد لون الدم على اللون الأخضر

---

[1] د. أوراق الزيتون، ص ٢١٠-٢٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالغابة الخضراء تحولت عند الغروب إلى بركة حمراء حين سفحت علـــى أرضها أرواح خمسين ضحية، وقد كانت مسرح الجريمة، وقتيلاً آخر، لقد وظـــف الشاعر الامتزاج اللوني لعنصري الزمن والدم. للتعبير عن الانتقـــال مـــن حالـــة لأخرى، من الحياة إلى الموت ومن النهار إلى الليل. ليس ضمن الدلالة الطبيعيـــة فحسب بل بالدلالة الوجدانية والحياتية والمعنوية. وأمام صبغة الموت التي أريقـــت بيدٍ قاتلة، يبدأ الشاعر بعملية نقض القتل وتوجيه بالاتجاه المضاد فدرويش لا يســـلم حياة الناس إلى خاتمة الموت. ويسلب حياة العدو التي يصنعها القتل منه، يقول:

آه يا خمسين لحناً دموياً

كيف صارت بركة الدم نجوما وشجر ؟

الذي مات هو القاتل يا قيثارتي

ومغنيك انتصر [1]

ويقول:

لا تدفني موتاك !خليهم كأعمدة الضياء

خلي دمك المسفوك لافتة الطغاة إلى المساء[2]

لقد تحولت بركة الدماء إلى نجوم وشجر تفضح هذه الجريمة وتعلن. عنـــها فالنجوم ترشد إليها، والشجر يدل على استمرار الحياة وانتصارها على الجريمـــة. ويعلن الشاعر موت القاتل انتصار المغني حين فضح جريمة العدو وحين استمر في الإنشاد للحياة لقد كانت الجريمة مؤشراً على موت الجاني لأنها تتناقض مع القيـــم الإنسانية والأخلاقية التي تمثل عند الشاعر حقيقة معنى الحياة. مما سيجعل القـــاتل غير قادر على إعمار حياة سوية وبناء حضارة مستقرة. فالعدوان والطغيان الـــذي

---

[1] مغني الدم، وآخر الليل ص ٢٠٣.

[2] ق. الموت مجاناً، وآخر الليل، ص ٢٠٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مارسه سيقوده إلى الأفول لان وجوده متناقض مع السير الطبيعي لمنـــهج الحيـــاة، ولأنه جعل من دم الضحية منارات للآخرين ستدفع بهم إلى النهوض والمقاومة لذلك تحول موت الضحايا الذي وصفة (بالموت مجاني) إلى حاث للباقين على المقاومة في سبيل الحياة وتحولت القبور إلى شواهد تدفع بقية الناس إلى الفعل وتحثهم علـى رفض هذا المصير والثأر لها:

يا كفر قاسم

من توابيت الضحايا، سوف يعلو

علم يقول: قفوا؟ قفوا؟

واستوقفوا

...

يا كفر قاسم ! لن ننام.. وفيك مقبرة وليل

ووصية الدم لا تساوم

ووصية الدم تستغيث بأن نقاوم

أن نقاوم[1]

- الضحية والقاتل:

واستطاع محمود درويش أن يغير مفهوم الموت في نهاية هذه المرحلة حيث تحول الموت إلى وسيلة للحياة والخروج من مأزق الهزيمة الداخلية، فأسباب الموت صارت عنده أسباب للحياة وبرز هذا التوجه في ديوانه "العصافير تموت في الجليل " وقد ربط الشاعر بين دورة الموت والحياة على الأرض فلا تكون هنـــاك نهايـــة لوجود هذا الإنسان ومسيرته عليها بحلول الموت الذي تحول إلى حافز يحثه علـــى

---

[1] ق. عيون الموتى على الأبواب وآخر الليل، ص ٢١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التحدي الحضاري في سبيل البقاء فدورة. الحياة والموت تمتد عبر القـــرون مـــن النهوض والسقوط والهزيمة والانتصار على طريق إثبات الوجود الحضاري يقول:

لكنهم جاؤوا من المدن القديمة

من أقاليم الدخان

كي يسحبوها من شراييني

فعانقت المدى

والموت والميلاد في وطني المؤله توأمان[1]

فالموت صار فعلاً مقدساً في سبيل الحياة، ينبثـــق أحدهمـــا عـــن الأخـــر، والضحية باتت إيقاعا للحياة ومحرضا عليها. بل كان فعل القتل الواقع على الضحية سبباً لبعثها ومطراً يغذي روح الصمود فيها، والضحية لا تعني القتيل فـــرداً، بـــل عموم الشعب الفلسطيني بعناصره: يقول الشاعر في "حوار في الشتاء":

أحاور ورقة توت:

ومن سوء حظ العواصف أن المطر

يعيدك حية

وأن ضحيتها لا تموت

وأن الأيادي القوية

تكبلها بالوتر.

.....

أحور روح الضحية:

---

[1] ق. السجين والقمر، د. آخر الليل، ص ٢١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن سوء حظ العواصف أن المطر

يعيدك حية

ومن حسن حظك انك أنت الضحية

هلا... هلا ...بالمطر ![1]

لقد رأينا الجرم عند الشاعر يمارس على الإنسان والطبيعة معاً، وهنا يجمعها الشاعر في فعل المقاومة والصمود والانبعاث من الموت. فنجده يتوجه بالحوار الى ورقة التوت مرة والى روح الضحية أخرى. فتلك العواصف التي تمثل القوة التخريبية، حملت من داخلها سبباً لبقاء واستمرار الحياة في العناصر التي يدمرها "المطر" فرغم أن العواصف تفتت وتحطم وأمطارها مدمرة إلا أن الأرض قادرة على المدى الطويل على الاستفادة من تلك الأمطار في إنبات حياة من جديد، وكذلك الأجيال قادرة على أن تحول من الفعل التدميري لعدوها سبباً لاثبات استمرار وجودها. فينقلب الفعل التدميري لتلك العاصفة بذرة فناء لها، فهي تخسر قواها وتُضيع بذور الحياة فيها. فالمجتمع الصهيوني حين يسعى لزرع الموت في المجتمع المحتل يضيع زرع الحياة في مجتمعه، لذلك كان موقف الضحية عند الشاعر هو الأكثر قوة، لأن لديها أسباباً للعودة إلى الحياة. والضحية لا تموت فلكل فعل رد فعل[2] والقهر يقابله الصمود. وقد قام الشاعر بتطويره لمفهوم الحياة بتطوير حالة الضحية فانتقل بنا في ديوانيه الأخيرين من "الموت المجاني" في" آخر الليل"، إلى الشهداء تأكيدا على تحول الموت وسيلة إلى الحياة ولا سيما بعد الهزيمة القاسية التي لم يعد الصمود بعدها إلا مقاومة سلبية. فإلى جانب ظهور الفدائي الذي مثل عند الشاعر رمزاً للفعل الإيجابي، كان الشهيد يمثل حالة الانتصار على الوجود السلبي للجموع المهزومة بعد ١٩٦٧. ولقد بدت في الدواوين السابقة الضحية

---

[1] د. حوار في تشرين، آخر الليل، ص ٢٠٦.

[2] عنوان قصيدة للشاعر في ديوان آخر الليل ص ٢٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عزلاء، يقع عليها فعل العدو، وتحولت من المجني عليه إلى الجاني، دون أن تملك أي دور غير دور الضحية. ولقد اختار الشاعر شخصيات الضحايا نماذج مسالمة بسيطة تشع إنسانية وحبا للحياة وللأهل، كادحة في سبيل العيش. كما "في القتيل رقم ١٨" التي كانت روح الضحية فيها تبحث عن حبيبها معتذرة عن تأخرها مشيرة إلى المعيق لها "قاتلها"، وكما في قصيدة "جندي يحلم بالزنابق البيضاء " إذ جاء وصف الضحية على لسان الجندي بعد أن طلب الشاعر منه وصف واحد من الذين قتلهم يقول:

وقال لي كأنه يسمعني أغنية:

كخيمة هوى على الحصى

وعانق الكواكب المحطمة

كان على جبينه الواسع تاج من دم

وصدره بدون أوسمة

لأن لم يحسن القتال

يبدو أنه مزارع أو عامل أو بائع جوال

وعندما فتشت في جيوبه

عن اسمه، وجدت صورتين

واحدة لزوجته

وواحدة لطفلته[1]

لم تكن شخصية محاربة في الوقت الذي واجهت فيه مقاتلاً مدرباً في سبيل ممارسة قتلها الذي شرع، لا لسبب إلا لكونها موجودة. وخضعت هي للرصاص

---

[1] د. آخر الليل، ص ١٩٢-١٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكن في قصيدة"ضباب على المرآة" تتحول الضحية فيظهر الشهيد الذي يمثل الفعل الوحيد الذي أجاب على حالة الانتظار التي أفرزتها الهزيمة خارجا منـــها ليخلــق التواصل الفعلي مع الأرض خارجين من الضياع جاعلين مـــن أجســادهم طريــق الوصول لهم ولغيرهم يقول:

في حصار الدم والشمس

يصير الانتظار

لغة مهزومة

أمي تناديني، ولا أبصرها تحت الغيم

ويموت الماء في الغيم، وآه

....

عندما ألقوا علي القبض

كان الشهداء

يقرأون الوطن الضائع في أجسادهم

شمساً وماء

ويغنون لجندي، وآه...

...

شمسنا أقوى من الليل

وكل الشهداء

ينبتون اليوم تفاحاً، وأعلاماً، وماء

ويجيئون

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويجيئون[1]

وآه

لقد خلقت الهزيمة حالة من الضبابية سببها انتصار العدو وانهيار الشعارات والأحلام الكبيرة بالانتصار. وكشف واقع لا يجعل من الحق سببا للانتصار. مما يجعل الشهادة وسيلة كشف شمس الحق وعودة إمداد الروح بالأمل واخراجها من قوقعة الإحساس بالانكسار لذلك كان الشهداء يقرأون الوطن شمساً وماء في الوقت الذي حوصرت فيه الشمس ومات الماء في الغيم، فيكشفون الشمس التي تمثل حق الشعب الفلسطيني بأرضه الذي لا يلغيه تفوق الاحتلال وفرضه وجوده على كامل الأرض الفلسطينية بالقوة، تلك القوة التي لن تهبه الحق بهذه الأرض لذلك كانت " شمسنا أقوى الليل " تأكيداً على نصوع الحق الفلسطيني بهذه الأرض، هذا الحق الذي يؤكده الشهداء حين يجيئون "تفاحاً وأعلاماً وماءً " فهم احتلوا الدور القيادي وعنصر الحياة حين كانوا ماءً يخرج الأرواح من ظمأ الانهزام والإحساس بالخسارة، ونلحظ أن الشاعر اسند فعل المجيء إلى الشهداء رغم انهم يذهبون، فكأن الجميع غائب والشهادة هي حالة الحضور الوحيدة التي تنتصر على فراغ الغياب وعدميته. وفي قصيدة "آه.. عبد الله " سقط الشهيد في طريقه لخلق اتصال بامتداده القومي، وعبد الله شهيد فلسطيني سقط أثناء محاولة التسلل خارج الحدود لقد تمثلت محاولة الاتصال تلك بموله الذي أنشده بحثاً عن ليلى في أنحاء الأرض العربية، أي بحثاً عن ذلك الإخلاص والالتزام العربي بالارتباط مع الشعب الفلسطيني في صراعه ضد محتله وتكون ليلى هي الحلم الذين يعني الوصول إليه للخلاص والخروج من الوحدة والضياع. لقد كانت ليلى، هي الموروث النقي الذي يوحد هذا الامتداد الكبير في عمقه الزمني والجغرافي والذي يحفظ هذا الإنسان من الضياع، فكما كانت ليلى هوية عاشقها. فهذا الفلسطيني يبحث عن هوية وجوده وخلاصه

---

[1] ق. ضباب على المرآة، د. العصافير تموت في الجليل. ص ٢٦٧-٢٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خلال ذلك الامتداد الواسع من بغداد إلى الشام والجزيرة وصنعـــاء ... لذلـــك رأى العدو في هذا الموال خطراً على الأساطير التي يعبدها، لان حقيقة هـــذا الامتـــداد الحضاري يلغي ادعاءاته ويكذب أساطيره، ولأن ذلك الامتـــداد القومـــي الحقيقـــي سيكون قادراً على تفتيت تلك القومية الصهيونية المصنوعة:

عبد الله لا يعرف إلا

لغة الموال، والموال مفتون بليلى

أين ليلى ؟

لم يجدها في الظهيرة

يركض الموال في أعقاب ليلى

يقفز الموال من دائرة الظل الصغيرة

ثم يمتد إلى صنعاء شرقاً

والى حمص شمالاً

وينادي في الجزيرة س:

أين ليلى:

كان عبد الله يمتد مع الموال

والموال ممنوع

يقول السيد الجلاد:

إن البعد في الموال لغم

في الأساطير التي نعبدها

وتدلى رأس عبد الله

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في عز الظهيرة [1].

ولكن بعد الهزيمة في ١٩٦٧ والصمت العربي وامتداد الاحتلال لـــم يعـد صوت عبد الله قادرا على الوصول ولا تسمعه ليلى ولا النخيل، كناية عن الانحسار العربي وعدم قدرته ذلك الامتداد القومي على تحقيق الخلاص والحلم لهذا الإنســان وربما الخيبة من الانزواء العربي بعد أن تحول الوجود الصهيوني الـــى شــرطي يحرس المنطقة من ذلك الحلم وتمتد هرواته لكن من يرفض طاعة "الله" أي القــوى الاستعمارية العالمية المتألهة على العالم والتي تريد للمنطقة أن تسير ضمن شرطها تحت تهديد الوجود الإسرائيلي فيها الذي زادت هيمنته:

هكذا الدنيا

وأنت يا جلاد أقوى

ولد الله

وكان الشرطي !....

.....

آه.. عبد الله

لا تسمعك الأرض

ولا ليلى..

ولا ظل النخيل

ولد الله

وكانت شرطة الولي

---

[1] ق. آه، عبدالله، ديوان العصافير تموت في الجليل، ص ٢٦٠-٢٦٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومليون قتيل !.. [1].

لم يعد عبد الله قتيلا وحده، بل هناك مليون قتيل، وهذه المرة لم يكن القتيل كما هو مألوف بل هؤلاء المليون هم الذين وقعوا تحت الاحتلال في ١٩٦٧. فالاحتلال هو الموت الذي يقتل وجود الناس، وقد يكون المليون قتيل ليس من وقعوا تحت الاحتلال فقط بل كناية عن ما أصاب الشعب العربي عموما من انكسار داخلي حين قتلت الهزيمة ذلك الحلم كما أنها هزمت مستقبل المنطقة بشعوبها، فمليون قتيل لتعميم الحالة.

لكن يبقى الشاعر هو القادر على التواصل مع هذا الشهيد الذي يصله بالأنبياء فالشاعر الآن يستلهم من الشهداء دورهم في قيادة شعوبهم للخلاص من التخبط وضياع الحقائق.

لذلك كان الشاعر يتصل من خلال نافذة الشهيد بالأنبياء لما لهم من دور في خلاص الشعوب هذا الدور الذي يتقمصه الآن. وهو يرى في الشهيد رغم موته عاملا يقلب بعمله تكوين الأشياء ويغير الموازين ويصنع الحرية وينزل الحلم الى الأرض واقعا. فهو

(الذي يبذر السماء في الأرض ويصنع الأقمار في الطين):

وأنا افتح شباكي

لكي يدخل عبد الله

كي يجمعني بالأنبياء !..

.....

عادة لا يعمل الموتى

ولكن صديقي

---

[1] المصدر السابق.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان من عادته أن يضع الأقمار

في الطين،

وأن يبذر في الأرض سماء

وأنا افتح شباكي

لكي يدخل عبد الله حرا وطليقا

كالردى والكبرياء..

لقد كانت الشهادة والشهيد عند درويش مخرجاً كلما اشتد الحصار وجواباً حين يفرض الصمت لغة هزيلة. ودرجا للصعود من قاع واقع يباعد بين الفلسطيني وأمله.

لقد تعددت صور القتيل الفلسطيني عند الشاعر من ضحية كان موتها مجانيا.

إلى سنبلة قمح، وشواهد على جرائم العدو ومنارات للقادمين، إلى حالة انتصار، على الهزيمة، أو خلاص من ذل المنافي في سعي الى الوطن والالتحام به. لقد أخذت ألوان الضحية ألوان تطور وعيها النضالي وفهمها لمحيطها بشروطه. في الوقت الذي يمارس فيه القاتل أسلوبه الدموي ذاته من الكفين الذئبيتين في قصيدة (؟) الى النهر الذي يلفظ قطع الدم واللحم في قصيدة (الجسر).

والقاتل دائما يمارس حرفته، قاتلا أي معايير إنسانية قد تعيق أداءه لجريمته باحتراف، هذا القتل الذاتي الذي عبئ به من قبل كيان عسكري يرى في المعايير الإنسانية إثما حين يفكر فيها الجندي تجاه ضحيته، كما عبر عن ذلك جندي يحلم بالزنابق البيضاء. ورغم أن هذا الكيان صنع جنودا يتوحدون بالقتل السهل كالتدخين ويحصدون برشا شهم هادئين إلا أن درويش يرسم شخصيات أراد أن يغلب انتصار الطبيعة الإنسانية فيها. وإن كان لبعض الوقت، تلك الطبيعة التي تدفع تلك النماذج إلى الاقتراب من الوعي والإحساس بأبعاد ممارسة هذا الوعي الذي يخلق توترا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقلقا تبطنه تلك الشخصيات حين تبتعد عن الجبهة وتسمح لذاتها بالانعتاق من عبودية عقيدة ارتدت بزه عسكرية وتاريخا زائفا، قلق يترك الشاعر لنفسه مرة كشف سببه في "جندي يحلم بالزنابق البيضاء" حين يشير الى برك الدم التي يحاول الجندي الهرب منها. وأخرى يجعل الجندي يكشفه في (كتابة على ضوء بندقية) وفي كلا الحالتين هناك رغبه بالهروب. تعبر عن عدم قدرة هذه الشخصيات على الحركة في حيزها الإنساني بانسجام وأمن، بل كانت الشخصية الأخيرة تجد نفسها واقعة تحت عبئ احتراف القتل حتى في لحظاتها الخاصة في إطار علاقتها مع المرأة. تلك الشخصية التي أدركت أنها في سبيل قتل الآخر، كانت قد قُتلت حين عاشت حربا لم تجن منها إلا خسارة الحياة ارتباط مصيرها بالآلة الحربية التي باتت بديلا عن عناصر الحياة الإنسانية الطبيعية ومعطلة لها يقول في (جندي يحلم بالزنابق البيضاء):

.. دخن ثم قال لي:

كأنه يهرب من مستنقع الدماء:

حلمت بالزنابق البيضاء

بغصن زيتون[1].

ويقول في "كتابة على ضوء بندقية" على لسان الجندي:

وأحست يده تشرب كفيها، وقال

عندما كان الندى يغسل وجهين بعيدين

عن الضوء: أنا المقتول والقاتل

لكن الجريدة

وطقوس الاحتفال

[1-٢] د. آخر الليل، ص ١٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تقتضي أن اسجن الكذبة في الصدر

وفي عينيك، يا شولا، وأن امسح رشاشي

بمسحوق عقيدة

أغمضي عينيك لن أقوى على رؤية عشرين ضحية

.....

وأصول الحرب لن تسمح أن أعشق [1]

إلا البندقية

ويقول:

وأحست كفه تفترس الحضر

فصاحت: لست في الجبهة..

قال:

مهنتي !

قالت له: لكنني صاحبتك

قال: من يحترف القتل هناك

يقتل الحب هنا [2].

- أداة القتل:

وفي ختام هذه الفقرة أشير إلى بروز البندقية في هذه المرحلة (وسيلة للقتل) فقد كانت السلاح الذي بسطر المشهد الدموي، ففي قصيدة (عاد في كفن) كان الرصاص قد ترك آثار حروقه على وجنات الطفل. وفي "أزهار الدم" تحولت

[1-2] ديوان العصافير تموت في الجليل، ص ٣٣٤-٣٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البندقية الى آلة حصاد للأجساد البشرية وفي (الجسر) كانت طقطقة البنادق إعلانا بانتهاء رحلة العودة ووقفت البندقية بين أولئك المتسللين وأرضهم. لقد كانت البندقية سلاح العدو الذي يقتنص به ضحاياه العزل في المواجهات اليومية، في وقت مثلت البندقية تفوقه ولغته. فضلا عن أن البندقية مرتبطة بمظهر الجنود أينما ذهبوا والذين باتت بنادقهم عضوا منهم. وقد أخذت عند الشاعر البندقية بدلالتها على العنف والحرب أسلوبا يمارسه الوجود الصهيوني لتثبيت بقائه وفرض نظامه وتصفية الآخر العربي أبعادا تفوق وصفها وسيلة لإنهاء حياة هذا الإنسان، بل لقد ظهرت أكثر قسوة في حياة الطرف الآخر الذي رهن وجوده بها. وقد احتلت البندقية في هذا الصدد أكثر من عنوان مثل:

(ريتا والبندقية) و(كتابة على ضوء بندقية) وكما ظهرت في أكثر من مشهد في قصيدة (جندي يحلم بالزنابق البيضاء). وفي (ريتا والبندقية) كانت البندقية تفتتح مشهد القصيدة وتختمه، لتشكل حاجزا يعيق العلاقة الطبيعية الإنسانية بين الرجل والمرأة اللذين اسقطا في ظل تلك العلاقة أي حاجز عقدي وعنصري أو عرقي فلا عداء كان بينهما لكن جاءت البندقية لتشكل ذلك الحاجز الذي ألغى التواصل وخلق لغة الحرب ليلغي إمكانية الاتصال الإنساني ولتكون البندقية رمزا للكيان الصهيوني بأفكاره القائمة على العدوان وافناء الآخر والنزوع الدموي. وكما كانت البندقية هنا معيقا للاتصال الإنساني والبديل عن اللغة والتواصل، كذلك في قصيدة (كتابة على ضوء بندقية) التي أقفل بها الشاعر مشهد القصيدة، إذ يسود الصمت وتغيب جميع شخصيات القصيدة ويبقى الليل والبندقية اللذان يحددان مصير جميع تلك الشخصيات، وليكون ما يكتب في ضوئها زيادة في التباعد بين النماذج البشرية وإلغاء لأي إمكانية تواصل مما يفقد الحياة حيويتها وعناصر جمالها ليسود الخوف الذي يرده الحارس الليلي أو يحرسه ! حيث بات عنوان الحياة بندقية يقول:

بين ريتا وعيوني.... بندقية

والذي يعرف ريتا، ينحني

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويصلي

لإله في العيون العسلية

.....

آه.... ريتا

بيننا مليون عصفور وصوره

ومواعيد كثيرة

أطلقت نارا عليها.... بندقية

.....

آه.... ريتا

أي شيء ردّ عن عينيك عيني

سوى إغفائتين

وغيوم عسلية

قبل هذي البندقية [1]

ويقول:

أين سيمون ومحمود ؟

من الناحية الأخرى

زهور حجرية

ويمر الحارس الليلي

والإسفلت ليل آخر

---

[1] ق. ريتا والبندقية، ديوان آخر الليل، ص ١٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يشرب أضواء المصابيح

ولا تلمع إلا البندقية.. [1]

لقد تعرض البعد الإنساني للقمع عند طرفي الصراع، فتظهر البندقيـــة فـــي حقيقة هيمنتها على الحياة. ولقد وصفت الشخصيات التي رسمها الشاعر تلك الصلـة التي ربطتها بالبندقية يقول:

وكيف كان حبها

يلسع كالشموس.. كالحنين ؟

أجابني مواجها

وسيلتي للحب بندقية [2]

وفي كتابة على ضوء بندقية:

وطقوس الاحتفال

تقتضي أن أسجن الكذبة في الصدر

وفي عينيك يا شولا، وأن امسح رشاشي

بمسحوق عقيدة

لم أفكر بك.. لم أخجل من الصمت الذي

يولد في ظل العيون العسلية.

وأصول الحرب لن تسمح أن اعشق

إلا البندقية.

---

[1] ق. كتابة على ضوء البندقية، ديوان حبيبتي تنهض من نومها. ص ٣٤١.

[2] ق. جندي يحلم بالزنابق البيضاء، آخر الليل، ص ١٩٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجدوا علبة كبريت، وتصريح سفر

وعلى ساعده الغض نقوش..

.....

عندما شبّ أخوه

ومضى يبحث عن شغل بأسواق المدينة

حبسوه..

لم يكن يحمل تصريح سفر

إنه يحمل في الشارع صندوق عفونة

وصناديق أخر[1]

في هذه القصيدة قد يبدو للوهلة الأولى أن العدو في موقفة من الضحيتين يتبع أسلوبا متباينا فلا يستند تعامله على شكل ثابت تجاه الآخر رغم أن الأساس واحد، قد تبدو هذه الإشارة صحيحة، لكن القصيدة تنبهنا إلى تأثير عامل الزمان في تنويع أساليب الجاني والتغير الذي يصيب حياة المجتمع الفلسطيني. فهذا العامل الزماني مكن للوجود الصهيوني ثباته وقوته وبقاءه على هذه الأرض لهذا كان الفعل الدموي الذي اعتمده لغة أولى في سبيل محو الآخر اكثر تحفزا أو شمولا في التعامل في أي موقف.. لكن عامل الزمان الذي سار لصالح الوجود الصهيوني وانتصاره في ١٩٦٧ كان أيضا يزيد من شقاء المجتمع الفلسطيني ومكابدته في سبيل الحياة،حيث كبرت الطفولة سريعا لتبحث عن لقمة عيش صعبة، هذا التفاوت في حركة الوجودين ثبات الأول الصهيوني وشقاء الآخر يبرز أساليب تعبر عنه، فالسجن وسيلة ذلك الذي استطاع أن يطمئن الى قوة وجودة وهيمنته على مصير

---

[1] القتيل رقم (٤٨) آخر الليل، ص ٢١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الآخر في وسائل عيشه وسعيه لاحتوائه ضمن أطرها وشكلها لتلغيه هـــذه المـــرة معنويا وحضاريا وإنسانيا. وفيما يلي سأتناول:

*** ممارسات السجن والقمع والتعذيب:**

لقد أشار الشاعر إلى القمع والإرهاب الفكري والأدبي الذي تمارسه حكومـة السلطات الصهيونية باعتباره جزءاً من ممارساتها ضد الإنســان الفلســطيني فــي قصيدته "عن إنسان " في ديوان " أوراق الزيتون " حين قال في مقدمتها:

وضعوا على فمه السلاسل[1].

وبشّر في ختامها بزوال غرفة التوقيف والسلاسل، وبروز هذه الممارســات إلى جانب معاناة السجن أكثر وضوحاً في ديواني "عاشق من فلسطين" و" آخر الليل" في هذه المرحلة ويعود ذلك إلى تعرض الشاعر نفسه للاعتقال والسجن عدّة مــرات بسبب قصائده ومشاركته في المهرجانات الشعرية الوطنية. فظهر " الســجن " فــي عناوين عدد من قصائده ودارت أخرى حول صمود الشاعر وإصراره على التحدي أو حول ما استطاع السجن أن يخلقه في وعي الشاعر ووجدانه مــن رؤى جديــدة تدفع به إلى السير ضمن خط النضال الوطني والتعبير عن ملامح أشــد حميميــة للوطن. ومن تلك القصائد " برقية من السجن "[٢] و " السجن " [٢] و " شهيد الأغنيــة "[٣] و " تحدي "[٤] و " ناي "[٥] و" صوت وسوط "[٦] و"الســجين والقمــر "[٧] و " الأغنية والسلطان"[٨]. ونلحظ أن الشاعر حين عبّر عن معاناة السجن فقد فعل ذلــك من خلال تجربة ذاتية، والسجين هو الشاعر خاصة. الــذي اقتيــد إلــى الســجن ومورست عليه الضغوط في سبيل التخلي عن قصائده الوطنية وإعلان الخضــوع إلى تلك السلطة الاستعبادية، يقول في " شهيد الأغنية ":

نصبوا الصليب على الجدار

---

[1] ص ١٢.

[٢-٨] ديوان عاشق من فلسطين، ص ١٠٢، ١٠٣، ٩٨، ١١٧، ١١٩، ٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فكوا السلاسل عن يدي

والسوط مروحة، ودقات النعال

يا أنت

قال نباح وحش:

أعطيك دربك لو سجدت

أمام عرشي سجدتين

.....

أو

تعتلي خشب الصليب

شهيد أغنية وشمس[1]

إن أهم عنصر يبرزه الشاعر في غايات هذا القمع هو هدف الإلغاء الـــذي يسعى إليه العدو. والإلغاء هنا، إلغاء صوت ومنع لهذا الفلسطيني من إعلان وجوده ووقوعه تحت المعاناة.

وفي المقطع السابق كان الصوت هو " الأغنية " التي استفزت كل طاقـــات العدو لتعذيب الشاعر سعياً لسلخه عنها معلناً الخضوع، أو يكون المـــوت مصـــير المغني الذي ربط مصيره بأغنيته وتلك الشمس لتكون أغنيته أغنية حق وحرية.

وهنا يصوّر الشاعر المواجهة مع العدو في إطار المشهد الأسطوري مما يحيل الموقف الصراعي إلى أبعاده الوجودية التي ينتزع فيها الإنسان حريته واستمرار بقائه من براثن تلك القوى الكبرى التي تريد التحكم بوجوده. فينفتح المشهد على أدوات التعذيب والضحية المقيدة بالسلاسل، وفي الطريق بين السلاسل

---

[1] ق.ديوان آخر الليل. ص ٢١٧-٢٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والصليب تهوي السياط وتتعالى طرق نعال الخصم.وهذا المشهد يضع الشاعر في حالة من التماهي أو التشبه "بالمسيح" في مشهد صلبه كما يظهره "الكتاب المقدس". حيث يقبل التضحية في سبيل خلاص الآخرين، فصلب على يد بني إسرائيل كما يقول "الكتاب المقدس". ويأتي صوت العدو. ليطرح السبيل الذي يقدمه خلاصاً لهذا الإنسان وهذا الصوت ينادي الشاعر بصيغة "يا أنت" وهذه العبارة تحمل محاولة تضييع وإنكار هوية هذا الإنسان وتحقيره. ولكن مقابل ذلك وصف الشاعر هذا الصوت بنباح وحش. فهو صوت قاس فقد سماته الإنسانية وقدم طرحه "بتأله" يلغي مجال المساواة بين الطرفين. فهو يفترض أن يكون المعبود وأن يكون الآخر "ضحيته" العبد. وذلك حين يطلب من الشاعر السجود له ولثم كفيه كمظهر من مظاهر الطاعة. فالشاعر مطالب بالانضواء تحت تعاليم سلطة الاحتلال وإلا فعليه أن يتلقى أصناف الألم والمحاصرة، يقول الشاعر في موقف السلطة من شعراء المقاومة: (شعار السلطة: اكتب ما تشاء وادفع الثمن الذي نشاء" هذا هو الشعار غير المكتوب. ولكن، ما هو الثمن ؟ لن تعمل، لن تمارس حرية التجول ولن تترك طليقاً، وستبقى عرضة الاعتقال.).[1]

وتعيدنا هذه القصيدة إلى الموقف "الصوتي" للشاعر حيث يمثل الصوت موقف الإنسان المقاوم. ويشكّل دليلاً على إنسانيته إلى جانب كونه الوسيلة الأخيرة لهذا الإنسان المحاصر والمحروم من التعبير عن وجوده سياسياً وعسكرياً. وقد سلب منه حق الفعل على هذه الأرض. فالصوت أو الكلمة هي التي يحاول أن يعرّف نفسه إلى العالم بها. والتي يحاول أن يقيم من خلالها اتصالاً بالعالم الذي فرض عليه أن ينقطع عنه.

بينما يمارس الشاعر السلب لصوت " العدو " لتحل مكانه ممارساته أو صوته الوحشي أو أدوات تعذيبه كما في " صوت وسوط " ليسقط عنه الخصائص

---

[1] محمد دكروب حديث مع محمود درويش، مجلة الطريق عدد ١٠-١١ ص ٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإنسانية محيلا وجوده إلى وجود تدميري. تقتل فرصة التواصل مع الآخر الفلسطيني ويستبدلها بالإلغاء ويقول في "صوت وسوط":

يا سيداتي ... سادتي

يا شامخين على الحراب

الساق تقطع ... والرقاب

والقلب يطفأ – لو أردتم –

.....

والنيل يسكب في الفرات

إذا أردتم ... والغراب

لو شئتم ... في الليل شاب

لكنّ صوتي صاح يوماً:

لا أهاب

فلتجدوه، إذا استطعتم

واركضوا خلف الصدى

مادام يهتف لا أهاب

فهذه القصيدة تمثل مقابلة بين منهجين أو موقفين: يمثل "الصوت" فيها الشاعر و "السوط" القمع الصهيوني، وفي المقطع كان خطاب الشاعر موجهاً إلى جلاديه يعرّف بنفسه قدرتهم وقوتهم وما يستطيعونه من فتك مشيراً إلى جبروتهم العسكري وحلمهم التلمودي بدولة بين الفرات والنيل. كل هذه المعرفة بقوة الخصم الذي حاصره في السجن.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ليحاصر صوته كانت تسقط أمام كلمه (لا أهاب) ليكون التحدي والصمود الذي يمتلكه (الأسير) هو القوة التي لا يستطيع(العدو) بما هي له من عتاد أن يصل إليها أو يحط منها لأنها قوة حره أثيريه فإن جلد الشاعر فالكلمة حين تنطلق لا يستطيع السوط منعها من الانتشار ولا يستطيع رد صداها ... فالشاعر هنا عاني السجن لأنه حمل الكلمة الثورية المقاومة أما في قصيده (الأغنية والسلطان) غضب (السلطان الذي يمثل الهيمنة والتحكم على القصيدة أو الكلمة لأنها تقاوم ادعاءاته الزائفة وتكشف زور أساطيره وتفضح حقيقته القائمة على الاغتصاب وإقامة كيان مشوّه يفرضه على الوجود ويريده أن يمتد على الخارطة فيكون ردّه بغرفة التوقيف حيث ينبغي أن يكون مقر " الأغاني العنيدة " فالقصيدة إذا أرادت أن تحمل بعداً وطنياً يعبّر عن معاناة الإنسان الفلسطيني وتحثه على الصمود أو إشارات إلى حق هذا الإنسان بالأرض وملكيته لها. فالمكان الذي سيختار العدو الشاعر غرفة التوقيف:

غضب السلطان

والسلطان مخلوق خيالي

قال إن العيب في المرآة

فليخلد إلى الصمت مغنيكم، وعرشي

سوف يمتد

من النيل إلى الفرات

أسجنو هذه القصيدة

غرفة التوقيف خير من نشيد وجريدة[1]

---

[1] الأغنية والسلطان، ديوان آخر الليل، ص ١٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أغلب قصائد السجن عند الشاعر ركزت على التحدي عند الشاعر وكيف يعيد هذا السجن خلق الوطن بصورة تجعله أكثر قرباً وتجعل الشاعر أكثر انتماءً، فممارسات القمع هنا كأي ممارسة أخرى تثير في الإنسان وعيه على موقفه من الصراع الذي يتطلب منه أن يكون أكثر وعياً بنفسه وحيز انتمائه الذي يمثله في هذا الصراع ...

وإلى جانب ذلك يشير درويش في إحدى القصائد إلى محاولة العدو إسكاته شاعراً بصورة مباشرة فتمنع عنه عدّة الكتابة وتقيد يداه وتمنع عنه السجائر في محاولة لإخضاعه ومنعه عن الشعر. ومنع مثل تلك الأشياء البسيطة يعكس زيف ما يحاول أن يجمل به الكيان الصهيوني نفسه من أنه الدولة الديمقراطية في المنطقة والتي تتاح فيها حرية الكلام ... والتعبير وهم هنا لا يحاربون الإنسان بل حاربوا الكلام حين أرادوا وأده قبل خروجه بسجن الشاعر يقول في "تحد":

شدوا وثاقي

امنعوا عنّي الدفاتر

والسجائر

فالشعر دم القلب

يكتب بالأظافر

والمحاجر

والخناجر [1]

لاحظنا أن الشاعر يشير إلى السجن عادة بأدوات التعذيب التي ظهرت عادة كإحدى عناصر السجن مثل السلاسل، القيد، السوط، والصليب، وغرفة التوقيف. أو يُظهر مجموعة يوجه إليها الشاعر الخطاب بالتحدي. أو يظهر كقوة مهيمنة تحاول

---

[1] ق. تحدي عاشق من فلسطين، ص ١١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إخضاع الشاعر "الأغنية" إلا أنه في إحدى قصائده قام بقلب المواقف بين السجان والسجين، يقول في قصيدته السجين والقمر:

سأحدث السجان، حين يراك

عن حب قديم

فلربما وصل الحديث بنا إلى ثمن الأغاني

هذا أنا في القيد أمتشق النجوم

وهو الذي يقتات، حرّاً، من دخاني

ومن السلاسل والوجوم[1]

فهنا في الوقت الذي استطاع الشاعر من قضبان سجنه أن يتمرد قلباً وروحاً وفكراً فامتشق النجوم تلك التي بأضوائها توحي له دربه وتخرجه من قيد المكان حين تفتح له أفق السماء، في الوقت الذي يسعى السجان إلى مساومة الشاعر على أغانيه. إلا أن هذا السجان الذي يقف في الخارج ويأخذ موقف المساوم لم يكن بحرية الشاعر، فإذا نظرنا إليه فرداً فهو مأجور لأداة قمع سلم نفسه لها، ليكون مقيداً ينال حياته من قمع الآخر فهو يقتات على دخان الأسير والسلاسل والوجوم، فالسجان مشدود إلى السجن (السلاسل والقيود) رغم أنه يظهر حراً أكثر من الشاعر الذي لم تكن إحاطة الجدران به لتعطل حرية إحساسه وقوة إدراكه لحيوية وجوده.

ورغم هذه المواجهة الصامدة لقمع العدو إلا أن ذلك التضييق الذي تعرض له الشاعر جعله في مرحلة ما يرى الوطن وقد تحول إلى سجن كبير ولا سيما بعد هزيمة ١٩٦٧ فكانت الزنزانة أحياناً تلعب دور المنقذ من هذه الحيرة والاغتراب الذين يجدهما نتيجة اضطراره للتعايش مع واقع لا يعترف به. لقد استطاع العدو أن

---

[1] من السجن والقمر، ديوان آخر الليل، ص ٢١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يحول الوطن إلى قيد في نفوس بعض أبنائه مما أوصل العديد منهم إلـى الخـروج والشاعر منهم، فكانت قصيدته لا " جدران للزنزانة " تعبيراً عن ما استطاعه العـدو من تحويل الوطن الى قيد تصبح الزنازين فيه مساحة للحرية:

كعادتها

أنقذتني من الموت زنزاتتي

ومن صدأ الفكر، والاحتيال

على فكرة منهكة

وجدت على سقفها وجه حريتي

وبيارة البرتقال

الوجود الصهيوني يمثله أفراد وسلطة:-

١- الأفراد:

عايش الشاعر أثناء وجوده في الأرض المحتلة المجتمع الإسرائيلي وشـهد التغيرات التي تصيبه وتأثير الأحداث السياسية عليه. وخاصة حالة القلق في فـترة ما بعد حرب ١٩٦٧ وعصف الأزمات الاقتصادية بالدولة. التي لم تستطع تحقيـق الوعود التي أغرت بها القادمين الى أرضها فظهر أدب قلق الشباب اليهودي تحـت ضغط الحياة العسكرية الدائم والذي سلبه الكثير من خصوصيات حياتـه الإنسـانية وبدا الوعي على وجود العربي أكبر، لكنه ليس وعي حقوق بل وعي خوف يثـير أسئلة كثيرة. ومنها مغزى البقاء على هذه الأرض فـي ظـل الظـروف والحيـاة الصعبة... وقد حاولت الكتابات الإسرائيلية الرد على هذه الموجة بإعـادة طـرح (اوشيفتس معسكرات الاعتقال) بديلاً مرعباً ومرفوضاً يقود هذه الشخصيات إلـى التسليم بالبقاء هنا تحت تهديد الخوف الذي يدفعهم إلى التكتل وشدة اليـأس الـذي يقودهم لاختيار الحرب بعقلية المسادة الانتحارية وإيمان أن الحرب القادمة جزء من

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجودهم اليومي وحياتهم حتى صار عنوان احدى أغانيهم "أنـــا وأنـــت والحـــرب القادمة" لقد تحول العرب إلى كابوس، وما يشغل الضمير الاسرائيلي للخلاص منـــه ليس الاعتراف بالآخر إنما على الآخر أن يتوقف عن إثم التفكير بحقـــه ويرضـــى بحق اليهود في أرضه ليكون منصفاً ويحل السلام[١].

والشاعر في ظل ذلك أراد أن يؤدي دوراً في الوعي الاسرائيلي منطلقاً من مفهوم إنساني يجعله يرى في تلك الحشود البشرية ضحية للحكومة والصهيونية التي تستغل حياتهم في سبيل توطيد وجودها يقول في بيانه بعد الخروج من فلســطين:- "إني أتمزق مرتين: مرة على شعبي: ومرة على المواطنين اليهود الذيـــن يقودهـــم حكامهم إلى كارثة"[٢]. ولقد عزز هذا التوجـــه وجـــوده فـــي الحـــزب الشـــيوعي الاسرائيلي الذي يجعله يشارك في محاربة الأفكار العنصرية العدوانية للمواطنيـــن اليهود، والتي تعبئهم بها عقيدة تقوم على أساس الاضطهاد كموقف من العالم ضدهم من جانب، وموجه ضد ضحيتهم من آخر، يقول الشاعر عن دور الأدباء العرب في الأرض المحتلة في المجتمع الاسرائيلي "ثم أننا نحارب التثقيف الرســـمي للشـــباب اليهود بروح الشوفينيه والغطرسة القومية والتفوق الغربي وتزييف التاريخ، ســـواء كان ذلك في برامج التعليم أو الصحف أو الأدب أو الفكر"[٣]. وفي سبيل أداء هـــذا الدور نجد محمود درويش يلجأ في شعره إلى نوع من التمييز يظهر في دواوين مـــا بعد ١٩٦٧ بين السلطة الصهيونية والأفراد في محاولـــة للتوجـــه بالخطـــاب إلـــى المجتمع الإسرائيلي من خلال قصائده. فظهرت فيها بعض النماذج الفردية في شعره والتي تعبر أيضاً عن قلق الشباب اليهودي في ظل وجودهم تحت ســـلطة الكيـــان الصهيوني. ونستطيع القول أن تلك النماذج الفردية تمثلت فـــي صـــورة الجنـــدي

---

[١] محمد درويش، أنا وأنت والحرب القادمة، يوميات الحزب العادي، ص ١٥٦-١٧٣.

[٢] محمود درويش، لماذا خرجت من اسرائيل.؟ الهلال آذار، ص٦.

[٣] محمد دكروب، حديث مع محمود درويش، ص ٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمرأة. وقد ظهرت هذه الشخصيات في قصيدتين: "جندي يحلم بالزنابق البيضـــاء" و "كتابة على ضوء بندقية" وأضيف إليهما : "ريتا والبندقية".

وقد تناولت قصيدة "جندي يحلم بالزنابق البيضاء" شخصية الجنـــدي والتـــي ظهرت بعض سماتها في أماكن سابقة من الفصل. وقد تناول هذه القصيدة عدد مـــن الدارسين تفاوتت آراؤهم ومواقفهم منها ومن منهج محمود درويش فيها، فمن مطـــور لها ولحسها الإنساني العالي إلى ناقد متحامل على الشاعر والشخصية التي صورهـــا ومن هؤلاء:

رجاء النقاش في كتابه "محمود درويش شاعر الأرض المحتلة" تحت عنوان انسانيون لا متعصبون[1].

وعبد الرحمن ياغي في "دراسات في شعر الأرض المحتلة[2]. وترجمها إلى الإنكليزية وهاشم ياغي في كتابه "الشعر الحديث بين النظرية والتطبيق[3]. إذ يقدمها نموذجاً للحداثة في الشعر وكانت آراؤهم تدور حول هذا التفوق الإنساني للشـــاعر الذي قاده بعيداً عن أسلوب الضغينة في التعبير وجُعله رغم الألم الذي يلحقه الأعداء به يغلب إنسانيته في حوار يجربه مع جندي نراه تحت تأثير كؤوس الخمر يفضـــي بما لديه معبراً عن ما يعانيه من تشوه نفسي وحنين إلى الأرض التي جاء منها حيث توجد عناصر علاقاته الإنسانية التي لا يجدها على هـــذه الأرض وأثنـــاء حـــواره يكشف هذا الجندي أسباب الخلل الذي سببه فيه كيان استغل أحلامه ووعده بـــالوهم. الذي لم يجده. مسخراً لتعبئته عناصر ثلاثة : عاطفة دينية، وأساطير زائفة، وبندقية. تحول هذا الإنسان إلى آلة فقد تحت ضغطها مجاله الإنساني الذي بات الحنين إليـــه يتفجر فيه، تلك المصارحة التي كان يساعد الشاعر الجندي في الوصول إليـــها أدت بالجندي إلى قرار الرحيل ليكون الشاعر بذلك قد قام بدوره الإنساني فـــي إيصـــال

---

[1] ص ٢٢٣-٢٣٤.

[2] ص ٢٨٩-٢٩٨.

[3] ص ٥٥-٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الآخر إلى مجاله الإنساني أيضاً حين يعترف بجريمته تجاه الآخر وانفصاله عن هذا المكان، ويتخذ قرار الرحيل سعياً لإعادة التواصل مع شرطه الإنساني الذي يرى الشاعر انه ما زال يحمله في داخله لكنه يحتاج إلى نفض ما فعلته به الصهيونية عنه إلا أن يوسف الخطيب في كتابه "ديوان الوطن المحتل" يرفض منح تلك الشخصية أي جوانب إنسانية لأن الجندي الإسرائيلي يمارس جرائمه كأي جندي نازي يقول: "أي نمط إنساني عجيب، حقاً، ذلك الذي جاء من بولنده، أو رومانيا، أو اتحاد جنوب افريقيا، من أجل أن يبحث عن زنابق بيضاء في الجولان أو في الغور الأردني، أو في سيناء.. إن هذا الإنسان سواء أكان شاعر البلاط نفسه أو مسوخه الأخرى في هيئة عامل أو في هيئة مزارع، أو في هيئة جندي يحلم بالزنابق البيضاء، لا يكاد يختلف شيئاً عن أيما ضابط هتلري قام بواجبه العسكري على أكمل وجه في ساحة القتال، أو في أحد أفران الغاز ثم عاد إلى نفسه يسكر ويبكي، ويتأمل صورة زوجته وطفله اللذين تركهما خلفه في برلين"[1].

وعلى أي حال لا نستطيع النظر إلى هذه القصائد خارج المحيط الذي قيلت فيه سواء محيط الشاعر الفكري والثقافي والنفسي أو المحيط الاجتماعي، ولقد ذكر درويش في إحدى المقابلات التي أجريت معه وسؤل فيها عن هذه القصيدة، أنه قالها في صديق يعرفه وأنها كانت قصيدة واقعية يقول عن ذلك وعن موقف حزبه منها "أصل القصيدة حكاية حقيقية، قبل حرب ١٩٦٧ كنت أسكن في حيفا، وكان الحي مختلطاً يسكن فيه العرب واليهود وأنا منذ صغري لي أصدقاء كثيرون من اليهود ولم تكن عندي صورة نمطية عن الأفراد اليهود. قصتي مع اليهود حافلة... اليهود. بينهم السيئ وبينهم الجيد، وهم ليسوا فقط شياطين.. هم مجموعة من الشياطين والملائكة. فقبل الحرب جاءني أحد أصدقائي اليهود ليودعني قبل الذهاب إلى حرب لا يعرف ما إذا كان سيعود منها ولا أرى حرجاً من القول الآن أن الإسرائيليين ذهبوا إلى هذه الحرب بخوف شديد، وكثير من أصدقائي اليهود طلبوا

---

[1] ص ٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مني أن أساعدهم في حالة دخول الجيش المصري إلى حيفا. وبعد الحرب جـــاءني الصديق، وكان منتصراً طبعاً وقال أنه سيرحل عن هذه البلاد إلى الأبد، وســيهاجر إلى فرنسا. فأنا في هذه القصيدة رويت سيرة ذاتية لهذا الشخص.. ولقد اخترت هذا الشخص كنموذج للتناقض بين الوطن الخرافي والوطن الواقعي، ولكي أتكلم عـــن قسوة الحرب من خلال حب جندي عادي للزنابق البيضاء.. هي كانت عبارة عـــن قصيدة وداع لصديق خاض الحرب وانتصر فيها، ولكنه لم يتحمل قسوة الانتصـــار، ولم يتحمل كونه محتلاً للآخرين، الغريب أن الذين غضبوا من هذه القصيدة ليـــس العرب في الخارج كنت آنذاك في الحزب الشيوعي، لأنه كان الاطار الوحيد للدفـاع عن حقوق العرب، والصيغة الوحيدة للتعايش بين العـــرب واليـــهود، فوجئـــت أن المكتب السياسي ناقش هذه القصيدة، وفهم أحد الأعضاء أن الحل الحقيقي هـــو أن يرحل الإسرائيليون لكي يريحوا ضميرهم[1].

والحقيقة أن الناظر إلى القصيدة في سياقها النصي فقـــط، ســيخرج بـــهذا الانطباع، وسواء أكانت القصيدة تمثل موقف الشاعر أو سيرة ذاتية إلا أنها مثلـــت الصيغة نفسها لجوهر قصيدة "كتابه على ضوء بندقية" التي عزفـــت أيضـــاً علـــى التناقض بين الوطن الواقعي والوطن الخرافي وفيها نلتقي بشخصية الجندي والـــى جانبه المرأة اليهودية وفيها بدت الشخصيتان حاملتان الهم ذاته في قصيدة "جنـــدي يحلم بالزنابق البيضاء" وفي هذه القضية نرى الحلم وقـــد حملتـــه المـــرأة، ونجـــد شخصية الجندي وقد حققت الوعي على أبعاد وجودها على هذه الأرض ودخولـــها المعركة بعقيدة ورشاش ووعود بالمجد وإيقاف الشمس على حد السيف ونلاحظ فـي القصيدتين أن درويش كان يحرك حيز الوعي لدى شخصيتي الجنديين بوجود مؤثر خارجي، كأس الخمر في جندي يحلم بالزنابق البيضاء، والمرأة عند "سيمون" التـــي

---

[1] اخذ هذا المقطع من حوار اجرته القناة الثانية في التلفزيون الفرنسي مع الشاعر فـــي أيـــار ١٩٩٧، والذي سجلته جريدة "القدس" المقدسية، وأوردت مجلة الكرمل في عددها (٥٢) جزءاً منه تحت عنوان لا قداسة لجلاد..

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان يرى في عينها الضحايا والتي في حال وجوده في المعركة ينساها، ولا يخجل من الصمت يولد في عينها تعبيراً عن انفصاله عن حيزه الإنساني حين يتوحد بالمعركة والسلاح. وقد قامت المرأة هنا بدور الشاعر في طرح الأسئلة التي يعيها الجندي لكنه يبتلع الإجابة فالشخصية هنا لم تصل إلى تلك المصارحة التي وصلتها سابقتها. لقد حققت الوعي لكنه لم يترجم إلى إعلان أو موقف فالشخصية تهرب مما تعرف. وتسلم نفسها لقسوة الحرب مزينة لنفسها وعود المجد رغم مرارة الإيقاع الذي كانت ترنم فيه هذا الوعد لنفسها في الطريق إلى أريحا وسيناء، وواقع هذه الشخصية مثل واقع الجنود الذين قبلوا أن يكونوا جزءاً من وجود الكيان الصهيوني ويستمروا بالانقياد اليائس إلى وعوده، مجردين من أنفسهم أسلحة لحكومتهم. وهي إلى جانب ذلك عكست بعد عنصرياً حين تذكر الفتاة "شولميت" أنه حين جاء ينفذها من علاقتها بالشاب العربي "محمود" جاء ينقذها من الكفر بقوميتها. فقد استطاعت التعبئة العنصرية للعقيدة الصهيونية أن تمتلكه وتلغي عنده محاولة فهم الآخر أو الاتصال به في الوقت التي حققت " شولميت " فيه مستوى أكثر تقدماً من الوعي من خلال صلتها بالشاب العربي، وهو الشاعر هنا، فكانت من يطرح تلك الأسئلة الصريحة عن جدوى الحياة على هذا الوطن الضاري الذي فقد فيه معنى الوطن، وعن جدوى خسارة الحياة وهؤلاء الأفراد في الوقت الذي يكسب فيه جنرالات الحرب الأوسمة وينسى القتلى، بل أن هذه الشخصية حاولت أن تحرك الوعي نحو المصارحة في هذا الشاب العسكري (سيمون) وعند الجيران. هذا الوعي الذي حققته نتيجة تجربتين، صلتها بالشاعر التي أوصلتها إلى نوع من الاتصال بالآخر وفهمه الذي مثله الشاعر هنا، وهذا الفهم قادها إلى إدراك البعد الإنساني للآخر فتتساقط القوميات قشور موز، وتنفتح عينها على الخلل الذي أنتجه انتماؤهم لهذا الكيان الغاصب في حياة الآخر الفلسطيني فتخجل من نواطير الحقول، لقد أراد الشاعر أن يقول أن محاولة الاتصال والتبادل الثقافي والتعرف على الآخر قد تخرج الطرفين من المأزق الذي يخسران فيه معاً. وكانت هي تمثل الخسارة فيه حين خسرت

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصديقين محمود بعد السجن و "سيمون" ابتلعته الجبهة فما عاد نبض القلب يصـــل إليه فهذه الحرب عطلت مشاعر هؤلاء الناس من التواصل حتى بينهم هذا التواصـل الذي بانقطاعه يصبح اليأس والوحدة والخوف غرفة حياة الناس وخاصة حين يقفـل المشهد على البندقية، وفي ما يلي مقاطع القصيدة:

وغنى لغيوم فوق أشجار أريحا

يا أريحا أنت في الحلم واليقظة ضدان

وفي الحلم واليقظة حاربت هناك

يا أريحا أوقفي شمسك، أنا قادمون

نوقف الريح على مد السكاكين

إذا شئنا، وندعوك إلى مائدة القائد

إنا قادمون

سألته شولميت:

ومتى نخرج من هذا الحصار

قال، والغيمة في حنجرته:

أي أو أنواع الحصار

فأجابت في صباح الغد تمضي

وأنا اشرح للجيران أن الوهلة الأولى

خداع البصر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نحن لا ندفع هذا العرق الأحمر.

هذا الدم لا ندفعه،

من اجل أن يزداد هذا الوطن الضاري حجر..

شولميت اكتشفت أن أغاني الحرب

لا توصل صمت القلب والنجوى إلى صاحبها

ليتهم لم يكتبوا أسماءنا

في الصفحة الأولى

فلن يولد حي من خبر

وعدوا موتك بالخلد، بتمثال رخام

وعدوا موتك بالمجد، ولكن رجال الجنرال

سوف ينسونك في كل زحام

وسينسونك في كل احتفال

فجأة عادت بها الذكرى

إلى لذتها الأولى، إلى دنيا غريبة

صدقت ما قال محمود لها قبل سنين

كان محمود صديقاً طيب القلب

خجولاً كان، لا يطلب منها

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غير أن تفهم أن اللاجئين

أمة تشعر بالبرد

وبالشوق إلى ارض سليبة.

عندما عانقها، في المرة الأولى، بكت

من لذة الحب.. ومن جيرانها

كل قومياتنا قشور موز

فكرت يوماً على ساعده

وأتى سيمون يحميها من الحب القديم

ومن الكفر قوميتها

أين سيمون ومحمود؟

من الناحية الأخرى.

زهور حجرية

ويمر الحارس الليلي

ولا تلمع إلا البندقية [1].

ونستطيع القول: إن ظهور المرأة اليهودية في شعر محمود درويش كان يمثل التواصل الطبيعي بين الرجل والمرأة والذي يتجاوز حدود العنصرية والحقد

---

[1] من كتابه على ضوء بندقية دلوجينتي تنهض من نومها، ص ٣٣٢-٣٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتيح مستوى من الاتصال والاحتكاك المعرفي بين طرفين مختلفين ثقافياً ويقفان في حلبة الصراع. مثل ما كانت ريتا أو شولميت إلا أن شولميت تخرج من إطار كونها امرأة عادية بل وخرجت من إطار العقيدة للصهيونية فنستطيع أن نرى في شولميت أحد أشكال المرأة التي شكلت رمزاً للحياة وقوتها عند الشاعر وقد استقى الشاعر اسم شولميت من اشهر موروث أدبي عبري "نشيد الإنشاد" الذي يمثل أحد أناشيد الأفراح الرعوية وشولميت فيه العروس التي تتهيأ وتحيا طقوس الحب في انتظار سليمان وبذلك تكون شولميت في القصيدة هي "العروس، الحياة" التي انتظرت وتهيأت لكن عريسها لم يأت فيتعطل بهذا الغياب استمرار الحياة ولتصبح بدلالة أبعد الأرض التي خسرت مسيرة نموها وازدهارها بهذا الصراع الذي يعطل الطرفين عن السعي لإعمار الحياة فحياة البشر تعطلت في المجتمع اليهودي. وعطلت علاقة الإنسان الفلسطيني بأرضه، وسيره التاريخي عليها.

٢- السلطة:

نستطيع القول أن سلطة الاحتلال التي تمثل تجسيد الفكرة الصهيونية والتي استطاعت تجنيد الأفراد وترسيخ الاحتلال الاسرائيلي وإقامة دولة على الأرض الفلسطينية هي محور ما دارت حوله أشعار درويش حين يتطرق إلى الآخر معبراً عن تكوينها العدواني من خلال ممارستها التي ذكرت. ولقد ظهرت صورة هذه السلطة من خلال ممارساتها والقصائد التي أشرت إليها إلا أن هناك بعض الصور والرموز قد لا تدخل تحت عنوان الممارسات فضلت أن أشير إليها مستقلة.

لقد اختار الشاعر للإشارة إلى العدو ألفاظ تدل على مفهوم الظلم والجبروت ووصف المومس وبعض عناصر الطبيعة ومخلوقاتها وبعض الرموز التاريخية وفيما يلي أشير إلى بعض ما ورد منها في دواوين الشاعر:

أ- ألفاظ دلت على الهيمنة والجبروت:

مرت بنا ألفاظ مثل طاغية ومارد وجلاد والسلطان:

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذه ألفاظ قصد بها الشاعر جميعاً الخروج من التصريح عن العدو بوصفه سلطة قمع إلى اختيار مثل تلك الأوصاف التي تجرد العدو من أي مظهر غير مظهر الاعتداء والقسوة وليكون جزءاً من مفهوم الظلم والتحكم بمصير الآخرين بوصفه مفهوماً يتحد فيه الوجود الصهيوني مع دائرة الاعتداء والطغيان ضد مفهوم الإنسانية والحق ولقد وردت نماذج لهذه الألفاظ فيما سبق، و أشير إلى استخدام لفظة السلطان التي استخدمها الشاعر في قصيدته "الأغنية والسلطان" فقد جاء استخدام هذه اللفظة اقتراباً شديداً من التصريح بالإشارة إلى السلطة، فالشاعر يستغل هذا التقارب النطقي بين الكلمتين إلى جانب الدلالة المشتركة ولفظة السلطان تنقلنا إلى أجواء يحاول فيها المتحكم إعطاء نفسه هالة من القدسية تبيح له الحكم المطلق الذي يتعالى على أي فكر أو رأي آخر ويرفض أن يكون هناك صوت غير صوته. وهو يصف هذا السلطان بالمخلوق الخيالي يقول:

غضب السلطان

والسلطان مخلوق خيالي

قال: أن العيب في المرأة

فليخلد إلى الصمت مغنيكم، وعرشي،

سوف يمتد

من النيل إلى نهر الفرات[1].

والسلطان مخلوق خيالي لأنه لم يقم على أسس الوجود الطبيعي، فلا يشكل كياناً إنسانياً طبيعياً سليماً منسجماً، لأنه مصطنع وصاحب وجود شائه على المستوى الاجتماعي والحياتي والثقافي وحتى الوجودي فعملية التجميع التركيب التي قام بها جعلته يفقد خصائصه الإنسانية الطبيعية للمجتمعات، خاصة بعد إضفاء

---

[1] ق، الأغنية والسلطان، آخر الليل، ص ٢٤٢..

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصفة العسكرية على نظم حياته وإقحامه لوجود على المجتمعات البشرية اقحاماً، فهو لم يكن قائماً إلا في خيال صانعيه وأوهامهم وأحلامهم الاستعمارية والتاريخية والدينية المزورة.

٢- المومس:

لقد ظهرت صورة المومس للدلالة على الكيان الصهيوني عند الشاعر مرة في قصيدته "سونا" من ديوان أوراق الزيتون، وقد أشار سميح القاسم في إحدى مقابلاته عندما سئل عن دلالة بعض الرموز في شعر الأرض المحتلة، إلى دلالة المومس على السلطة والمرأة في شعرنا هي المرأة نفسها وهي رمز الأشياء، للأرض مثلاً، للجراح ... والعاهرة هي السلطة عندنا ولقد مزج الشاعر في القصيدة بين المومس الحقيقية والمومس الرمز فالمومس ظهرت صفراء الزهور وسريرها العشرون مهترئ الغطاء، فحياتها ذابلة، والمومس هي التي تتاجر في بلاده بالفتية المتسولين على النساء ليعبر الشاعر عن استغلال هذه الدولة لحياة أبنائها وإفقادهم بهجتها، فصارت قاتمة مطفأة أضواؤها وغارقة في الوحل تعبيراً عن حالة الضيق والاختناق في حياتهم في ظل الخوف. وهي تتاجر بأبنائها باسم دولتم العظمى تسخر دماءهم وتجندهم من كافة أصقاع الأرض. وهم ما عادات اغراءاتها المدعاة تشدهم، فالخوف ينتشر والحياة باتت غريبة موحلة. والمومس تمثل انهيار القيم والتلاعب بالآخرين كما هو الحال مع السلطة يقول:

أزهارها الصفراء.. والشفة المشاع

وسريرها العشرون.. مهترئ الغطاء

نامت على الإسفلت لا أحد يبيع أو يباع

وتقيأت سأم المدينة، فالطريق

عار من الأضواء

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من البرق الذي حكته أغنيتي على الصوان

أنا زين الشباب، وفارس الفرسان

أنا، ومحطم الأوتار

حدود الشام أزرعها

قصائد تطلق العقبان[1]

فالشاعر هنا يرى نفسه ذلك الأبا فراس "زين الشباب" وهو يواجه الروم وهم يحتلون حدود الشام، والشاعر هنا أبو فراس الجديد الذي يواجه أعداءه الذين عـادوا ليحتلوا حداً من حدود الشام ويستنهض بقصائده التي يطلقها من السجن عقبان الشـلم بصوت حماسي وليوحي بأنه وكما زال غزو الروم فالغزو الجديد سـيزول فـهذه الأرض محط إنزال لخيول الغازين الذاهبين عبر التاريخ.

بعض مظاهر الطبيعة التدميرية العمياء للعدو:

والتي تسعى إلى خلع الإنسان من أرضه كما تخلع الأشجار مـن جذورهـا أمام تلك المظاهر يقول:

عيونك شوكة في القلب

توجعني واعبدها

وأحميها من الريح [2]

ويقول:

فتحت الباب والشباك في ليل الأعاصير

عل قمر تصلب في لياليا

وقلت لليلتي دوري

وراء الليل والسور

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأنت كنخلة في البال

ما انكسرت لعاصفة وحطاب[1].

ويأتي الليل بظلمته لونه الأسود إشارة إلى الظلم الـــذي يلحــق بالإنســان وممارسات القهر وإلى الوجود الصهيوني عامة الذي سيطرته على حياة الناس ألغى النهار بوصفه رمزاً لحركة الحياة، وسادت حياة الخوف والليل الذي مـــا يفــترض سيلحق به نهار يزيله، فهو مرحلة وان طالت وصعبت سوف تنتهي وهذا ما دفـــع الشاعر لتسمية أحد دواوينه "آخر الليل" ويقول في قصيدة "عن إنسان":

يا دامي العينين والكفين

إن الليل زائل

لا غرفة التوقيف

ولا زرد السلاسل[2].

ولقد رمز الشاعر ببعض الحيوانات إلى العدو، ومنها الذبـــاب وبنـــات آوى والنمل والذئاب وقد استخدم هذه الرموز في التعبير عن تطفل الوجود الصهيوني في إقامة حياته على حياة الفلسطيني وسرقة قوته وضحيته. يقول في قصيدة أغنية:

فقد وزعت ورداتي

على البؤساء منذ الصبح... ورداتي

وصارعت الذئاب، وعدت للبيت

فالذئاب التي يصارعها الشاعر هم سلطة الاحتلال في مطاردتـــها للشـــاعر ويقول في قصيدة أمل:

ما زال في صحونكم بقية في العسل

ردوا الذباب عن صحونكم

---

[1] المصدر السابق ص ٨١.

[2] د. أوراق الزيتون، ص ١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لتحفظ العسل

ما زال في كرومكم عناقد من العنب

ردوا بنات آوى

يا حارسي الكروم

لينضج العنب[1].

فالذباب وبنات آوى تستعد لسرقة ما بقي للفلسطيني وقد رمز الشاعر للعدو بالأفعى في أكثر من موقع كان فيه مزج للدلالة الطبيعية والأسطورية كما في "تموز والأفعى" أو دلالة على الغدر والطبيعة القاتلة لهذه الدولة يقول في "عاشق من فلسطين":

كلي لحمي إذا ما نمت يا ديدان

فبيض النمل لا يلد النسور

وبيضة الأفعى

يخبئ قشرها ثعبان[2].

فهذا الثعبان هو الدولة الصهيونية والتي إن اختفت تحت قشرة رقيقة ناعمة بإظهار نفسها بصورة دولة متحضرة، إلا أن ما يربطها بهذا الإنسان هو طبيعة الغدر وسمها الذي تتحفز لزرعه في جسده.

---

[1] أوراق الزيتون، ص ١٤.

[2] د. عاشق من فلسطين، ص ٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

صورة العدو في شعر محمود درويش

١٩٧٠-١٩٩٥

بخروج الشاعر من الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٧٠ أنتقل إلى مرحلة جديدة، تغيرت فيها المعالم المحيطة به والظروف التي بدأت تلقي بظلالها على تجربته، فمن موسكو إلى القاهرة إلى بيروت، منضماً إلى منظمة التحرير الفلسطينية. ومبتعداً عن ساحة المواجهة اليومية مع العدو الذي كان يمثل فيها الخصم الأوحد، إلى ساحة تعددت فيها الأبعاد والمواجهات والخصوم.

ويتشكل فيها وجود الفلسطيني في ظل شروط جديدة، شروط المنفى واللجوء والمقاومة المسلحة والدخول مع العدو في لعبة المناورة والاشتباك من الخارج.

والشاعر ينتقل ليكون جزءاً من كل ذلك. ولينخرط في حالة اللجوء بشروطها وانعكاساتها، هذا الانتقال يستطيع المرء لمسه في التغير الذي ظهر واضحاً في نصوصه الأدبية. والتي كان الشاعر يعبر عن نفسه فيها حاملاً لصورة جموع كثيرة من شعبة كانت رهينة الظرف ذاته. سواء بأبعاده السياسية أو الاجتماعية أو النفسية أو النضالية.

وهذا الخروج والارتباط بالشرط الجديد لعب دوراً كبيراً في إعادة ترتيب الكثير من المفاهيم وأولوياتها، في التجربة الشعرية لدرويش. هذه التجربة التي امتدت خلال فترة زمانية طويلة، كان الشاعر فيها في سعيه لتطوير التجربة الجمالية لديه فيها يشكل الواقع وتجربته الإنسانية الخاصة المرتبطة بسياقها العام ضمن المستويات الجمالية لشعره.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما ظهور صورة العدو، فكان مرتهناً بمدى ما تغنيه هذه الصورة من أبعاد التجربة التي صورها الشاعر، وما تمارسه في صياغة الظرف الفلسطيني عبر تحولاته خلال هذه الفترة الزمنية. لكن الشيء الواضح أنها كانت تميل إلى الاختفاء لصالح التجربة الإنسانية للفلسطيني اللاجئ والبعيد عن أرضه والمتفاعل مع الأحداث التي يأخذ وعيه وحلمه فيها مستويات متداخلة. والتي كان الشاعر يعيش فيها سياقه الخاص المرتبط بها.

وقد فضلت رغم طول المرحلة وكثرة الدواوين فيها أن أتناولها في فصل واحد لأن الموضوع الذي تعني به الرسالة، كان ذا حيز صغير فيها، إلا أن هذا الحيز الصغير ظهر بدرجات لونيه متفاوتة. فرأيت تقسيم هذه الفترة الزمنية إلى مراحل كان ظهور صورة العدو وتطورها فيها مرتبطاً بتغيرات الأحداث التي عايشها الشاعر، وعبر عنها ضمن روايته لمسيرة الوجود الفلسطيني، فكانت ثلاث مراحل:

١- المرحلة الأولى حتى عام ١٩٨٢ هي المرحلة التي عاش الشاعر أكثرها في بيروت.

٢- المرحلة الثانية حتى عام ١٩٩٠ أو مرحلة الخروج من بيروت.

٣- المرحلة الثالثة حتى عام ١٩٩٥ مرحلة الحل السياسي والعودة إلى فلسطين.

* **صورة العدو في شعر محمود درويش حتى ١٩٨٢:**

عاش الشاعر في هذه المرحلة أزمة الخروج فنجده يكثر الالتفات إلى الخلف ومخاطبة الأرض وتحريك مشاهد الذاكرة. إلى جانب انخراطه في ظرفه الجديد ضمن السياق الثوري الوطني والعربي، والشعبي المتمثل بجموع اللاجئين. ومن هذا السياق لعب دوره في صياغة الواقع الفلسطيني والعربي أمام الوجود الصهيوني على الأرض الفلسطينية وضغط القوى الاستعمارية العالمية وتنقل الواقع العربي بين الانكسار والانتصار المجزوء ثم الحياد أو الرمادية كما وصف الشاعر الوضع

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العربي في مرحلة، وانعكاس هذا الوضع على مصير الفلسطيني في حلمه التحريري ومواجهته للعدو. فكثرت عند الشاعر قصائد العتب والانتقاد للوضع العربي. وإلى جانب ذلك الأحداث التي شهدها الفلسطينيون في الداخل والخارج من مجازر تل الزعتر في بيروت عام ١٩٧٥ إلى انتفاضة يوم الأرض في ٣٠/آذار ١٩٧٦ في الأراضي الفلسطينية المحتلة. هذه الأحداث التي سطرها الشاعر ضمن أعراس الشعب الفلسطيني. في ديوانه "أعراس".

وصورة العدو في ظل هذه الأحداث تراجعت من كونها جزءاً من خلفية لوجه المشهد الفلسطيني يبرز أحياناً فيه في المرحلة السابقة، إلى خلف اللوحة. وكان ظهورها في الأكثر مرتبطاً بتدفق الذاكرة الخاصة بالشاعر ولا سيما عندما يتوجه بالخطاب إلى الأرض وظهر أحياناً ضمن مشهد الأرض وحركتها. كما ظهرت صورته جزءاً من تشكيل ذاكرة اللاجئ الفلسطيني الذي ولد في المنفى وكانت تدخل ضمن إعادة خلق وعيه وهويته.

إلى جانب ظهور صورة جديدة خلفتها المواجهة اليومية في لبنان وقصف العدو لقوات المقاومة ومخيمات الفلسطينيين، هذه الصورة تمثلت بالطائرات التي شكلت هوية جديدة للعدو، وهي مرتبطة بالرؤية عند أبناء الأرض الفلسطينية في الخارج، وفيما يلي نلتقط تلك الصور من قصائد الشاعر في هذه المرحلة:

والتي شملت الدواوين : "أحبك أو لا أحبك" ١٩٧٢ و"محاولة رقم ٧" ١٩٧٣ وتلك صورتها وهذا انتحار العاشق" ١٩٧٥ و "أعراس" ١٩٧٧.

أ- صورة العدو بين ذاكرة الشاعر والأرض:

لقد برز في خطاب الشاعر الموجه عادة للأرض التي يبدو وكأنه يحاول أن يبرر لها أسباب خروجه إلى جانب خلق شكل جديد للعلاقة معها. برز العدو جزءاً من مشهد حياة الشاعر عليها وقد ظهر فيها معيقاً لحرية الشاعر وقدرته على التعبير عن نفسه وتشكيل هويته وحتى خلق التفاعل الذي يرغب فيه الشاعر مع

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أرضه. وكان حضور العدو عادة متمثلاً بالجنود وأحياناً بالسجان كمتلازمين في ذهن الشاعر لتلك التجربة التي خاضها على الأرض المحتلة. فضلاً عن كون الجنود هم التمثيل الحقيقي لطبيعة الوجود العسكري الاحتلالي للأرض الفلسطيني وسيادة النظام القمعي فيها . يقول في قصيدته "مزامير":

أغنيك، أو لا أغنيك

تداخل جلدي بحنجرتي. تحت نافذتي تعبر الريح

لابسة حرساً . والظلام بلا موعد، حين ينزل

عن راحتي الجنود

سأكتب شيئاً

وحين سيزل عن قدمي الجنود

سأمشي قليلاً.

وحين سيسقط عن ناظري الجنود

أراك.. أرى قامتي من جديد.[1]

في هذا المقطع يعلن الشاعر ارتباط شعره بهويته وانتمائه حين تداخل جلده بحنجرته. فالجلد هو الهوية، والحنجرة هي صوت الشاعر وشعره. وهذا الترابط بين العنصرين لم يكن حراً، فنافذة الشاعر – والنافذة تعبير عن الرؤية المنطلقة والحرة – تحاصرها الريح التي تجسدت بالحرس. ويحل عليها الظلام في أي وقت كناية عن الاعتقال المتوقع في كل حين. ونلاحظ أن الشاعر يعيد توظيف رموزه في المرحلة السابقة فالريح والظلام من الرموز التي أشار بها إلى العدو، ويأتي خلاص الشاعر بزوال الجنود عن راحتيه، حرية الكتابة، وعن قدميه ليتمكن من التقدم وهنا المقصود التقدم المعنوي الذي يتيح للشاعر تطوير تجربته ووعيه،

---

[1] ق. مزامير، د. أحبك أولاً أحبك، ص ٣٧١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعندما يسقط الجنود عن ناظريه حاجز الرؤية تلك الرؤية المعنوية التي تتيح للشاعر اكتشاف نفسه وصلته بأرضه خارج ضغط التعايش مع الاحتلال فيرى نفسه ويراها.

ويقول في القصيدة ايضا :

ودعت سجاني. سعيدا كانت بالحرب الرخيصة

أه يا وطن القرنفل والمسدس، لم تكن أمي معي

وذهبت أبحث عنك خلف الوقت والمذياع شكلك

كان يكسرني.. ويتركني هباء

والذكريات تمر مثل البرق في لحمي، وترجعني

إليك.. إليك. إن الموت مثل الذكريات كلاهما

يمشي إليك.. إليك، يا وطنا تأرجح بين كل

خناجر الدنيا وخاصرة السماء.[1]

هنا ظهر العدو في صورة السجان الذي ربح حربا غير متكافئة والشاعر الذي بقي مقيدا إلى الذكريات التي تشده إلى الأرض. ويطلق في خطاب آخر على العدو صيغة جديدة "الغزاة" التي استبدلها بلفظ الآخرين فالشاعر في هذه المرحلة تحرر من ضغوط الداخل واختار لفظة صريحة تعبر عن موقف تاريخي، فالغزو ينقلنا إلى أجواء الاحتلالات العسكرية القديمة وهجمتها المدمرة التي تسعى إلى كسب ما لدى المغزو وأخذ ما عنده، فيكون الوجود الصهيوني امتدادا لتلك الحركات الغازية التي مرت على هذه الأرض ومضت. وحركة الغزو توحي بالمجيء والذهاب خاصة عند ربط ذلك بصورة الغزو في المجتمعات البدوية والقبلية. حيث تقوم القبائل الغازية بسلب كل ما لدى الآخرين تاركة قراهم مدمرة. وتظهر هذه

---

[1] المصدر السابق، ص ٣٨٧، ٣٨٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصيغة إلىجانب صيغة "الفاتحين" التي استخدمها الشاعر في المرحلة السابقة أيضا يقول في قصيدة "تلك صورتها وهذا انتحار العاشق":

رأيت الذكريات تفر من شباك جارتنا

وتسقط في جيوب الفاتحين

وأشتهى ما يشتهي

أرتديك أو أخلع الأيام

لا تاريخ قبل يديك

لا تاريخ بعد يديك

سموك البديل

لأن لون الثورة احتل الكآبة

والغزاة يمشطون يديك من آثار ظهري

أرتديك وأخلع الأيام.[1]

فالشاعر هنا يرتبط بالأرض خارج معيار الزمن الذي غير هذا الارتباط فهو غير معني بما كان أو هو كائن، بل هو مرتبط بها بهذا الارتباط الذي يحاول الغزاة إلغاءه ومحو آثاره حين يمشطون يدي الأرض من آثـــار ظـــهر الشـــاعر، وهـــذا الارتباط مجرد عن أي مقياس سواه فالشاعر يرتدي الأرض ويخلع الأيام التي تعبث بارتباطه بأرض..

وفي قصيدة "الأرض" التي قالها الشاعر في إثر أحداث انتفاضة يوم الأرض عام ١٩٧٦ يعود الشاعر إلى الدخول في عالم الأرض المحتلة. حيث يظهر فيـــها شهر آذار شهر طقوس الإخصاب والحياة التي تدخلها الأرض. هذا الإخصاب الذي تمثل بالانتفاضة الشعبية آنذاك، كان أشبه بإعادة العدو إلى الوراء ونهوض الأرض

---

[1] د. تلك صورتها وهذا انتحار العاشق، ص ٥٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في مواجهته وعودة الحس الحماسي في هذه المواجهة التي مـــن خلالـــها تخـــرج الأرض من ظل العدو وحلمه لتعود إلى حلم أبنائها. فالعدو يفشل في أســو الأرض. يقول الشاعر فيها:

في شهر آذار، في سنة الانتفاضة، قالت لنا الأرض

أسرارها الدموية، في شهر آذار مرت أمام

البنفسج والبندقية خمس بنات. وقفن على باب

مدرسة ابتدائية، واشتطن مع الورد والزعتر

****

لا تدخلي في الغياب

سنطردهم من اناء الزهور وحبل الغسيل

سنطردهم عن حجارة هذا الطريق الطويل

سنطردهم من هواء الجليل

****

واستل من تينة الصدر غصناً

واقذفه كالحجر

وأنسف دبابة الفاتحين

****

وفي شهر آذار تأتي الظلال حريرية والغزاة بدون ظلال

وكان المساء مساء

وكان المغني يغني

ويستجوبونه:

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لماذا تغني؟

يرد عليهم

لأني أغني

ولقد فتشوا صوته

فلم يجدوا غير حزنه

وقد فتشوا حزنه

فلم يجدوا غير سجنه

وقد فتشوا سجنه

فلم يجدوا غير أنفسهم في القيود

***

لا يسأل الذاهبون إلى العمر عن عمرهم

يسألون عن الأرض، هل نهضت

طفلتي الأرض

هل عرفوك لكي ينزعوك؟

وهل قيدوك بأحلامنا فاتحدرت إلى جرحنا في الشتاء؟

وهل عرفوك لكي يذبحوك؟

وهل قيدوك بأحلامهم فارتفعت إلى حلمنا في الربيع؟

أنا الأرض.

يا أيها الذاهبون إلى حبة القمح في مهدها

أحرثوا جسدي

أيها الذاهبون إلى جبل النار

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مروا على جسدي

أيها الذاهبون إلى صخرة القدس

مروا على جسدي

أيها العابرون على جسدي

لن تمروا

أنا الأرض في جسد

لن تمروا

أن الأرض في صحوها

لن تمروا

أنا الأرض. يا أيها العابرون على الأرض في صحوها

لن تمروا

لن تمروا

لن تمروا[1]

في افتتاح المقاطع السابقة كان العدو ما زال يمارس دوره الدموي المعتـــاد هذا الدور الذي تكشفه الارض، وتعلن دور الدم الذي أريق في سبيل عودتها حيـــن تكشف أسرارها الدموية. والعدو يمارس دوره من خلال البندقية التي صارت رمـــز العدو في الداخل ونلاحظ أن الشاعر يستخدمها دائماً للتعبير عن ممارسات العـــدو الدموية هناك وذلك لطبيعة المواجهة المباشرة بين الناس والعدو على الأرض. هـذه البندقية التي قتلت خمس فتيات أمام مدرستهن الابتدائية فاشتعلن مع الورد والزعتر، هذا الحادث قاد الأرض لكشف أسرارها فيطالبها الشاعر بعدم الغياب.. ونلاحـظ أن الشاعر ألحق مطالبته بعدم الغياب بوعد يمثل توجهاً جديداً عند الشاعر، فهو يعـــد

---

[1] قصيدة الارض، د. أعراس، ص ٦٣٧، ٦٣٨، ٦٤٣، ٦٤٨، ٦٥١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بطرد الأعداء، ولم يكن الشاعر قد عبر بمثل هذه الصراحة العنيفة عن رفض وجود العدو على الأرض فهو يريد إنهاءه عليها إنهاء تطهيرياً يلغي أثر وجود العدو في كل شيء، من إناء الزهور أو حجارة الطريق أو هواء الجليل، ولتكون هذه العناصر رمزاً لكل نواحي الحياة التي على العدو أن يخرج منها. وفي ظل هذا الوعد الصارم يعزز درويش حس المقاومة الفعلية ضد العدو وإن تفاوتت القوة ليكون الصمود ذا طابع أسطوري، حجر في مواجهة دبابة الفاتحين هذا الحجر الذي أخذ غصناً من تينة الصدر والتين نبات مشهور في فلسطين وهو نبات مبارك يمتاز بطول العمر وتحمل الظروف البيئية الصعبة، وتينة الصدر رمز للمواجهة وجها لوجه وشجاعة الإنسان المواجه بصدره عدوه متفوقا، رغم صعوبة ظرفه.

ونلحظ أن هذا الفعل الثوري على الأرض وهذا الرفض لوجود العدو يسحب ظلال العدو ويلغيها في المقابل الذي تأتي فيه الظلال الحريرية لهذه الانتفاضة. والظلال تعبير عن السيطرة والأثر الذي ينتجه وجود مادي، هذا الأثر لم يعد العدو قادرا على بسطه على هذه الأرض ووجودها.

ونرى الشاعر في القصيدة يعود مرة أخرى إلى صوته في مواجهة المحتل الذي يريد منعه من الغناء حين يبحث عن سبب غناء الشاعر ويفتشه قلبا وصوتا فيكتشف حزنا فيه سجن والمحتل فيه في القيود، والشاعر هنا يولد إشارتين، إشارة إلى أن العدو يستفز بتعذيب هذا الإنسان ومحاصرته له صموده وانتماءه، وإشارة أخرى إلى أن العدو بات في حقيقة أمره هو السجين على هذه الأرض حين انتفض كل شيء فيها والقيود التي صنعها تكبله هو الآن بعد أن عجز عن إسكات ثورة الناس.

والشاعر في نهاية قصيدته يطرح مسألة وجود العدو على أنه مسألة الأرض فالجموع البشرية وهي تقضي مسيرة العمر تسأل عن نهوض الأرض، فالأرض غير مرتبطة بجيل من الناس. بل نهوضها الثوري مرتبط بوجودها هي لأنها جوهر الصراع وسيرته. فيطرح الشاعر أسئلته للأرض عن أعدائه والسؤال يدور حول

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المعرفة والقيد، أي هل عرفها الأعداء لكي يذبحوها، فهل استطاع العـــدو معرفـــة الأرض وفهمها ليمنع ثورتها بذبحها وهل استطاع تقييدها، هذا التقييد الذي تفلت منه في سعي للاتصال بأبنائها ففي شتاء الجرح تهبط إليهم وفي الربيع ربيع الانتفاضـــة وصعود الحلم، تنفلت من قيد حلم العدو بها لتصعد إلى حلم أبنائها. وتنطـــق هـــي لتعلن موقفها من حلمين، من شعبين، تقوم هي الآن بتعريفهما وتختار من ستسمح له بالمرور والحياة فوقها. فتتوجه إلى من ارتفعت إلى حلمهم في الربيـــع وتخاطبـــهم وتصفهم فهم الذاهبون إلى حبة القمح فتطالبـــهم أن يحرثوهـــا، وعمليـــة الحـــرث والزراعة والقمح هي أعمار الحياة والبناء التي تريد لهذا الشعب أن يقوم به عليها.

وهم الذاهبون إلى جبل النار بثورتهم والساعين إلى التحرير بذهابـــهم إلـــى القدس هؤلاء طلبت إليهم المرور عليها وتفتح لهم طريقها، لتلتفت بعدها إلى الطرف الآخر وتخاطبهم بالعابرين وهنا يستخدم الشاعر هذه الصيغة والتعريف بالعدو لأول مرة مستفيداً من رواية عبورهم النهر ليكون وجودهم هنا دائماً حالة مـــن العبـــور، والأرض هنا لا تعترف بهم وترفض بقاءهم فتسميهم بالعابرين، وتأخذ الآن الأرض دورها في فعل المقاومة بعد أن كانت فيما مضى حيادية وأسيرة. وتصدر قرارهـــا حازماً "لن تمروا" فالأرض دخلت صحوتها هذه الصحوة تتمثل في رفـــض مـــرور العدو، فكأنها حين دخلوا إليها كانت في غفلة وفي حالة صحوها لن يكون ذلك ممكناً لهم.

وسنجد الشاعر يعود لاستخدام هذه الصيغة مرة أخرى بعد ١٢ عاماً حيـــن تقوم انتفاضة الحجارة.

ب- صورة العدو واللاجئ:

كان ظهور هذه الصورة في ذاكرة الشاعر نفسه نوعاً من ظهورها في ذاكرة لاجئ خرج من الأرض التي عرفها وعرف هويته منها، إلا أننا في قصيدة "سرحان يشرب القهوة في الكفتيريا" نراها وهي تأخذ دورها في تشكل وعي اللاجئ الذي ولد

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في المنفى، وقد ظهرت صورة دخول العدو إلى الأراضي المحتلة كخلفيـــة لمشـــهد اللجوء فيبتدئ الشاعر بها قصيدته يقول :

يجيئون،

أبواب البحر، فأجأنا المطر، لا اله سوى الله. فأجأنا

مطر ورصاص. هنا الأرض سجادة والحقائب

عرابة

بحيئون،

فلتترجل كواكب بلا موعد والظهور التي

استندت للخناجر مضطرة للسقوط.

وماذا حدث؟

أنت لا تعرف اليوم، لا لون، لا صوت، لا طعم.

لا شكل.. يولد سرحان، يكبر سرحان.

يشرب خمراً ويسكر، ويرسم قاتلة، ويمزق

صورته. ثم يقتله حين يأخذ شكلاً أخيراً

ويرتاح سرحان[1].

لقد انفتح المشهد على المجيء تلك الصيغة التي يستخدمها الشـــاعر عـــادة للتعبير عن قدوم اليهود إلى فلسطين إلا أنها هنا جاءت بصيغة الفعل المضارع بينما ظهرت في السابق بصيغة الماضي، فالماضي كان يأتي لاقرار هذا المجيء. وهنـــا ينطلق من المشهد في بدايته ليبدأ من حيث كانت المأساة التي رافق تحققـــها فعـــل المجيء. فنحن أمام حالتين مرتهنتين فعل المجيء الذي يستمر وتقابله أبواب البحـــر "الخروج" مجيئهم وخروجنا هذا المجيء المترافق بمطر الرصاص، ووحدة الإنســـان

[1] د. سرحان يشرب القهوة في الكفتيريا، د. أحبك أو لا أحبك، ص ٤٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعجزه، هذا الإنسان الذي فوجئ فلم تعد أرضه غير سجادة وحقيبة في طريق الفرار من الرصاص إلىالغربة، وهذا المجيء يترافق مع صورة الهزيمة، وتصبح الصورة الفلسطينية بلا ملامح ويتعطل فهم ما حدث وتأتي أجيال اللاجئين في ظل ظروف، تحت ثقلها تبهت الصورة وتتشتت الهوية فلا لون ولا طعم ولا صوت إذ صارت شخصية الفلسطيني مسلوبة الخصائص ويعيش اللاجئ "سرحان" في تيهان وسكر ويعيش في وهم قتل عدوه فيه، في الحلم، وسرحان في القصيدة تتنامى ذاكرته ووعيه وهي تمر بالانفتاح على واقعها وماضيها الذي يوصله في النهاية إلى الاتصال بأرضه ونفسه: وفي تتالي المشاهد يقول الشاعر:

رأينا أصابعه تشتغيث . وكأن يقيس السماء بأغلاله

زرقه البحر يزجرها الشرطي يعاونه خادم أسيوي

بلاد تغير سكانها، والنجوم حصى

وكان يغني : مضي جيلنا وانقضى

مضى جيلنا وانقضى

وتناسل فينا الغزاة تكاثر فينا الطغاة دم كالمياه.

وليس تجففه غير سورة عم وقبعة الشرطي

وخادمة الأسيوي. وكان يقيس السماء بأغلاله[1].

واللاجئ في سجنه رأى صورة واقعة في وقت أخذ فيه العدو دور الشوطي الذي يسير المنطقة، فهو يزجر زرقة البحر، وزرقة البحر تمثل الحقيقة التي يردعها عن إعلان نفسها كما يسعى إلى تجفيف الدماء التي سفحها بقبعته! ويرى سرحان الأرض تغير سكانها، والغزاة قد استتب لهم الأمر بيننا واستقروا وتناسلوا، هذا

---

[1] المصدر السابق.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التناسل هيأ للطغاة التكاثر في الأمة. وباتا أي الغزاة والطغاة متلازمين، حيث أن الوجود الصهيوني أتاح قيام أنظمة قامت هي أيضا بدور الطاغية.

وفي مكان آخر يشير الشاعر إلى العدو سبباً لشقاء اللاجئين وأهل البلاد حين يحاصر أمل الثورة والمقاومة الذي يأيتهم في الخارج. يقول في قصيدة "الخروج من ساحة المتوسط":

في غزة اختلف الزمان مع المكان

****

أين المجدلية؟

وانهمرت كتابات كتابات

وكان الجند ينتصرون ينتصرون

كانوا يقرأون صلاتها

ويفتشون أظافر القدمين والكفين عن فرح فدائي

وكانوا يلحقون حياتها

بدموع هاجر كانت الصحراء جالسة على جلدي

وأول دمعة في الأرض كانت دمعة عربية

هل تذكرون دموع هاجر – أول امرأة بكت في

هجرة لا تنتهي

يا هاجر، احتفلي بهجرتي الجديدة من ضلوع القبر

حتى الكون أنهض[1]

---

[1] ق. الخروج من ساحل المتوسط، د. أحبك أو لا أحبك، ص ٤٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

استعار الشاعر هنا شخصيتين من التراثين الإسلامي والمسيحي فكانت المجدلية رمزا للشعب الباقي وهاجر رمزا للهجرة القسرية، والمجدلية التي مثلت الناس في غزة حيث المعاناة التي يغفل عنها العالم، تحولت أصابعها الطاهرة إلى لغة قد توصل هذه المعاناة فغزة لم تمتلك غير الكلام حين كان جند اليهود يعيشون بطولاتهم الدموية وينتصرون على الضعفاء في ظل واقع هزيل للأمة العربية، وهم يحاصرونها يراقبون نمو الثورة فيها لوأدها، فيقرؤون صلاتها، فلربما خبئت شيئا، ويفتشونها حتى في أظافرها خشية أن تحمل تحتها روح الفدائيين تلك التي كانت أقرب إلى صلاة المجدلية حيث تكتسب الثورة هالة قدسية، ويعذب العدو غزة "المجدلية" ويعاقبها على الفرح القادم من الخارج ملحقا إياها بدموع هاجر، تلك المهاجرة الأولى التي ذرفت دموعها في صحراء العرب، لتكون هجرة أبناء فلسطين هجرة جديدة لها. فيطالبها الشاعر بالاحتفال بهجرته لأنه سينهض لإنهاء هجرتهما معا.

٣- الطائرات وجه جديد للعدو:

نستطيع القول إن الطائرات مشهد جديد يدخل إلى نصوص الشاعر إثر انتقاله للحياة في بيروت، التي يشكل مشهد قصف الطائرات للبيوت معاقل الفدائيين وهدير أصواتها، جزءا من مظاهر الحياة اليومية. وصارت وسيلة القتل التي يستخدمها العدو لملاحقة الفلسطينيين في الخارج في عملية تستهدف إبادتهم والقضاء على مقاومتهم.

وبدت في صوره بديلا عن البندقية التي ارتبطت بعملية القتل والإبادة الممارسة في الداخل.. وقد ظهرت الطائرات في قصائد الشاعر مرتبطة دائما بطقس العرس أو الزفاف، عرس الموت أو الشهادة.

يقول الشاعر في قصيدة أعراس:

عاشق يأتي من الحرب إليوم الزفاف

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يرتدي بدلته الاولى

ويدخل

حلبة الرقص حصانا

من حماس وقرنفل

***

ذبل العاشق عينيه

وأعطي يده السمراء للحناء

والقطن النسائي المقدس

وعلى سقف الزغاريد تجيء الطائرات

طائرات

طائرات

تخطف العاشق من حضن الفراشة

ومناديل الحداد

وتغني الفتيات:

قد تزوجت

تزوجت جميع الفتيات

يا محمد

وقضيت الليلة الاولى

على قرميد حيفا

يا محمد

وتزوجت السلام

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يا محمد

وتقاوم

يا محمد

وتزوجت البلاد

يا محمد[1]

رأينا الشهداء في الفصل السابق يتجاوزون واقع الهزيمة، وبشهادتهم يحققون الاتصال بالأرض والانتصار على الانكسار. وظهر عبد الله شهيدا بيد الجلاد وبشهادته حقق الارتقاء والكشف الذي يرسم طريق الخلاص. هنا يظهر الشهيد من جديد ضمن طقس آخر. ففي الوقت الذي كان فيه عبد الله يسعى للخروج والاتصال بامتداده العربي. يعود الشهيد "العريس" هنا من الحرب، فهو فدائي، ليدخل طقوس الزواج. والزواج في ظل الحرب والقصف الدائم تغير مفهومه، ففي بداية القصيدة رسم لنا الشاعر طقوس زفاف حقيقي ليخرج منه إلى الزفاف البطولي الذي يحياه الشعب الفلسطيني وتحول المفاهيم في حربه لاستعادة أرضه فطقس الزفاف مظهر من مظاهر استمرار الحياة البشرية، وهنا بات الزفاف طقسا من طقوس الموت تتحول فيه الشهادة إلى مظهر استمرار الوجود الفلسطيني وحياته المتصلة بأرض. فالعاشق يتهيأ لزفافه و يذبل عينيه للحناء، هذه الحناء التي توحي بالمشهد الدموي القادم. وبانطلاق الزغاريد تأتي الطائرات ويوحي هذا التمازج الصوتي للزغاريد وأزيز الطائرات القادم التي يتكاثف مشهدها بتكرار ذكرها "طائرات، طائرات" بالترابط بين طقسي الزفاف ... لقد احتلت الطائرات وجه الفعل الدموي للعدو، فبعيدا عن المواجهة تأتي هذه الطائرات لتلقي حمولتها القاتلة وتحمل مسافري الموت ليقطعوا رحلة الوصول إلى أوج الزفاف ليتم الشهداء زواجهم الوجودي على

---

[1] ق. أعراس، د. أعراس، ص ٥٩١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أرضهم، ويكون الزواج زواجا كونيا يتم فيه الشهيد صعوده للوصول إلىعروســـه حين يتزوج ويصل الزواج أوجه حين يتزوج البلاد.

وتظهر الطائرات وسيلة من وسائل الاحتلال التـــي تتجــرد فـــي الوعـــي الفلسطيني الذي تشكل ضمن صور من مظاهر القهر التي تضيع وجـــوده اليومـــي يقول:

من أين تبدأ أرضه؟

من جسمه المحتل بالمستعمرات

الطائرات، الانقلابات الخرافات، الأناشيد

الرديئة، والمواعيد البطيئة[1].

والجسم هنا لم يتوقف عن كونه جثة شخص بل هو تمثيل لتجسد الوجود والوعي.

* **صورة العدو في شعر محمود درويش حتى ١٩٩٠**

شهد الشاعر في هذه المرحلة أحداثا مصيرية في مسيرة المقاومة الفلسطينية وكان فيها بمثابة الشاهد، فمن خروج المقاومة من لبنان تحـــت ضغـــط الحصـــار والقصف والإرادة الأمريكية والصهيونية ليركب الفدائيون البحر في رحلـــة بحـــث جديدة عن موطئ قدم جديد إلى مجـــازر صـــبرا وشـــاتيلا.. وخـــروج النضـــال الفلسطيني من مرحلة النضال المسلح إلى البحث عن مخرج سياسي يضـــع نهايـــة قريبة للفعل الفلسطيني الثوري إلى اشتعال انتفاضة الحجارة وتأجيجـــها الحمـــاس. وتنقل الشاعر بين القاهرة وتونس وباريس.

كل تلك أحداث ألقت بظلالها على شعر درويش في هذه المرحلة. فيتكلم عن بيروت والحصار والخروج والمجزرة. ومسيرة الاغتراب الفلسطينية التي تحولـــت إلى رحلة غجرية تعيد خروج العرب من الأندلس. ويطرح الشاعر أسئلته الوجودية

---

[1] سكت صورتها وهذا انتحار العاشق.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويرفع مسيرة النأي عن الوطن إلى عالمها الأسطوري المتوحد بحالة تعالج أسئلة الوجود والتاريخ والقدر في بحث غير منته. ويطلق من روح الانتفاضة رؤية ينتصر فيها البعد الحضاري التاريخي للوجود الفلسطيني على العبور الصهيوني عليها.

وفي خضم ذلك كان لصورة العدو ظهورا واضحا في بدايات المرحلة، خاصة في ديوانه "مديح الظل العالي" الذي كان فيه الشاعر يسطر ملحمة الخروج من بيروت والمجزرة. ثم تختفي تحت ضغط تحول المأساة الفلسطينية إلى قدر يكون التشرد فيه السؤال الأكبر، ولا يأخذ العدو ساحة أكثر من كونه جزءا من الأسباب التي تطرح الأسئلة فيها للوصول إلى الذات وفي انتقال الصراع إلى تجريده التاريخي والحضاري كان الشاعر يلبس العدو صور من سبقوه من الغزاة الذين مثلوا صورة للهمجية عبر التاريخ. الذي كانوا يسرقون من تركته سعيا لاحتلال مكان شعبه في الوجود عبر التاريخ.

وقد صدر للشاعر في هذه المرحلة ديوان "مديح الظل العالي" ١٩٨٣ وهو عبارة عن قصيدة واحدة. و"حصار مدائح البحر" ١٩٨٤ و "هي أغنية هي أغنية" ١٩٨٦ و"ورد أقل" ١٩٨٦ و"أرى ما أريد ١٩٩٠.

* **العدو والمجزرة:**

لقد رسم الشاعر في تسطيره للخروج من بيروت ومجزرة صبرا وشاتيلا عدة أوجه للآخرين جميعها اشتركت في التواطؤ على إبادته وشل فعله وأشير إلى أن الشاعر في قصيدته "مديح الظل العالي" يشير للمرة الأولى إلى أمريكا بوصفها راعي الإرهاب والوحشية وقاتل الأطفال ومدمر المدن فأمريكا هي وباء الجريمة في كل مكان سواء في هيروشيما، أو هنا في بيروت التي صارت هيروشيما أخرى تحت القصف والدمار كما يرى الشاعر، حيث تقدم هدايا الموت للأطفال، وتقنياتها العالية في طائرات وصفها الشاعر بوحش الجو ومدافع تقصف كل شيء في ظل

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إرادة وهيمنة أمريكية، فأمريكا تحتل العالم وتحرك حتى هـــذا الكيـــان المتوحـــش "إسرائيل" لتسخير هذا العالم ووضعه تحت سيطرتها. يقول:

وأمريكا على الأسوار تهدي كل طفل لعبة للموت عنقودية

يا هيروشيما العاشق العربي أمريكا هي الطاعون، والطاعون

أمريكا

نعسنا، أيقظتنا الطائرات وصوت أمريكا

وأمريكا لأمريكا

وهذا الأفق أسمنت لوحش الجو

نفتح علبة السردين، تقصفها المدافع

نحتمي بستارة الشباك، تهتز البناية تقفز الأبواب، أمريكا

وراء الباب أمريكا[1]

لقد هيئت بيروت ويشتد الظلام. وتحت هذا الظلام يبدأ الشـــاعر بـــإخراج صورة قاتلة الذي تهيأ للجريمة "للمجزرة" ويرى الشاعر بما أصابه هو صورة لمـــا يدعيه جلاده عن نفسه حين يرسم لها شكل الضحية. لقد بدأ الشاعر فـــي تســـجيله للمذبحة بكشف صورة جلاده منذ دمعته الأولى يقول:

بيروت / ليلا

لا ظلام أشد من هذا الظلام

يضيئني قتلي

أمن حجر يقتلون النعاس؟

أمن مزامير يصكون السلاح

ضحية

---

[1] ق. مديح الظل العالمي، ص ٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قتلت

ضحيتها

وكانت لي هويتها.

أنادي أشعيا: أخرج من الكتب القديمة مثلما خرجوا، أزقة أورشليم.

تعلق اللحم الفلسطيني فوق مطالع العهد القديم،

وتدعي أن الضحية لم تغير جلدها.

***

اختلطت شخوص المسرح الدموي:

لا قاض سوى القتلى

وكف القاتل امتزجت بأقوال الشهود

وأدخل القتلى إلى ملكوت قاتلهم

وتمت رشوة القاضي فأعطى وجهه للقاتل الباكي على شيء

يحيرنا

سرقت دموعنا يا ذئب

تقتلني وتدخل جثتي وتبيعها

أخرج قليلاً من دمي حتى يراك الليل أكثر حلكه

وأخرج لكي نمشي لمائدة التفاوض واضحتين.

كما الحقيقة:

قاتلا يدلي بسكين

وقتلى

يدلون بالأسماء:

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صبرا

كفر قاسم

دير ياسين

شاتيلا ![1]

قد أشار الشاعر إلى استغلال الصهاينة لتراثهم الديني ليصنعوا من أنفسهم ضحية عبر التاريخ تشهر مزاميرها القديمة لتستبيح قتل الفلسطيني الذي "علق لحمه" المباح بشرعية "عهدهم القديم" لاستعادة حق تاريخي مقدس مزعوم.

هذه الاستباحة للدم الفلسطيني، خلقت منه الضحية التي أفرغت فيها تلك الضحية المزعومة حقدها ومارست عليه دور جلادها. ورغم أن جوهر الحقيقة يعلن أن الفلسطيني هو الضحية، إلا أن هذا الجلاد لا يحب أن يظهر إلا في زي الضحية. لتختلط شخوص المسرح الدموي ويأخذ القاتل وجه القتيل، هذا القاتل الذي لم يكن هناك من يسعى لمقاضاته، والقاضي هو القتيل الذي احتل القاتل وجهه وسرق دموعه، ليكون العدو "ذئبا" يغرز نابه في جسد ضحيته ويذرف دموعها من عينيه لأنه يحب أن يكون المنتصر الذي يأخذ براءة الضحية. الضحية التي "يحيرها" أن تقدم شفاء هذا الجلاد الباكي بدموعها. ويطلب من عدوه كشف الأقنعة والخروج من دم الضحية لتبدوا حقيقته المظلمة التي سيكتشف الليل أنها أكثر حلكة منه. ليكون التفاوض واضحا بين الجلاد الذي يحمل سكينه الدموية وبين الضحية التي لا تملك إلا كما هائلا من صور المجازر والموت.

هذا الكشف الذي يطلبه الشاعر سيبدأ بالظهور، حين تبدأ هذه الضحية المزعومة بتمزيق جلدها استعدادا للمجزرة، هذه المجزرة التي تمثل امتداد صورة هذا العدو من مذابح دير ياسين وكفر قاسم إلى صبرا وشاتيلا ضمن تاريخ وحشي دموي، يقول:

---

[1] المصدر السابق، ص ٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بيروت /فجرا

بيروت /ظهرا

بيروت/ ليلا:

يخرج الفاشي من جسد الضحية

يرتدي فصلا من البارود أقتل – كي تكون

عشرين قرنا كان ينتظر الجنون

عشرين قرنا كان سفاحا معمم

عشرين قرنا كان يبكي.. كان يبكي

كان يخفي سيفه في دمعته

أو كان يحشو بالدموع البندقية

عشرين قرنا كان ينتظر الفلسطيني في طرف المخيم

عشرين قرنا كان يعلم

أن البكاء سلاحه

صبرا فتاة نائمة

رحل الرجال إلى الرحيل

***

وقدمت بيروت طاعتها وصارت عاصمة.

صبرا تنام. وخنجر الفاشي يصحو

صبرا تنادي.. من تنادي

كل هذا الليل لي، والليل ملح

يقطع الغاشي ثدييها – يقل الليل–

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يرقص حول خنجره ويلعقه، يغني لانتصار الأرز موالا

ويمحو

في هدوء.. في هدوء لحمها عن عظمها

ويمدد الأعضاء فوق الطاولة.

ويواصل الفاشي رقصته ويضحك للعيون المائلة

ويجن من فرح وصبرا لم تعد جسدا

يركبها كما شاءت غرائزه، وتصنعها مشيئته

ويسرق خاتما من لحمها، ويعود إلى مرآته[1]

نلاحظ أن الشاعر يعاود الاقتراب من تلك الصورة الوحشية للكيان الصهيوني التي رسمها له في قصائد مثل "؟" و"الرباط". الا أنها تبرز بعمق أكبر للتكوين الوحشي والربط مع العقيدة الصهيونية. هذه العقيدة التي خلقت من اليهودي مجرما وأخرجت من جلد الضحية فاشيا جديدا، يتمثل قاتله النازي المزعوم وهو يرصد ضحيته الفلسطينية. مختبئا خلف قرون يتباكى فيها شاهرا سيفه ومعبئا بندقيته ليصل في النهاية لطرح وجوده من خلال القتل، فالقتل هو هويته، (اقتل – كي تكون) هذه الهوية التي يحققها بالغاء الآخر الفلسطيني مستقصيا إياه أينما كان وهنا في مخيم صبرا، صبرا التي باتت بعد رحيل رجالها فتاة فقدت حماتها. وحين يهبط الليل على صبرا وتدخل غفوتها، يستيقظ الغدر الصهيوني "الفاشي" الجديد لقد اختار الشاعر وصفهم بصفة من كانوا يرسمونه جلادا لهم وهم الآن يرتدون معطفه. وهذا الجلاد يستيقظ وفي يده سلاح جريمته وتطلق صبرا نداءها ليعلن الشاعر موت الأحياء حين يوظف فعل النداء لاستحضار البيت الشعري المشهور:

---

[1] المصدر السابق، ص ٥١،٥٢،٥٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي

وفي سعيه لتمزيق أوصال الوجود الفلسطيني، يدخل العدو في رقصته البدائية المتوحشة كطقس من طقوس الانتصار المجنون، فيبدأ بقطع ثدييها، وهما وسيلة التغذية، تغذية الثورة، وحين يقطعان فذلك قطع لمصدر الغذاء والقوة، حين أقصيت صبرا عن حماتها وأبطالها والثورة.. ليثير ذلك الشهوة الهمجية الدموية فيلعق خنجر انتشاء واستعدادا لتمزيق الجسد الباقي مطمئنا، فيفصل اللحم عن العظم حين يقتل الناس ويحاصر المخيم، لقد مزقت صبرا وباتت جثة وأعضاء ميتة يمددها الفاشي على طاولة مجزرته وتبدو الصورة والبدائي يدور حولها في رقصته وتظهر هي جسدا ممزقا ميتا، لقد باتت صبرا تحت هيمنته يتحكم بمصيرها ويختار لها الشكل الذي يشاء، لقد استطاع العدو الصهيوني أن يقرر شكل الوجود الفلسطيني في بيروت، وصبرا لم تعد جسدا، فذلك يعني أنها فقدت وجودها الفاعل، فالجسد كما أسلفت يمثل الوجود المادي الحاضر والفاعل.. وهي فقدت ذلك، لقد وصلت المجزرة إلى ما تريد.

وبما أن العدو الآن يشكل المصير الفلسطيني، سيبدأ الآن قطع الطريق إلى تلك المفاوضات التي قال عنها الشاعر أنها ستكون بين جلاد يحمل سكينا وضحية تحمل دمها ويحذر القيادة من الوقوع في هذا الفخ. لانه لا يرى في العدو سوى قرصان لا يمتلك المصداقية أو قيم المقاتلين فمبدأ القراصنة هو السطو والقتل، ورأى الشاعر في هذا الطريق مذبحة لأنها ستبيد الشعب الفلسطيني إبادة حقوق وذلك اكثر مأساوية من إبادة الأجساد.

لا أرضى بما يرضي دم الإغريق من ريح تهب لتنتهي المأساة

بالمأساة. قد ذبحوك كي يجدوك كرسيا

لان جميع آلتهي كلاب بحار

فاحذرها ولا تذهب إلى القربان

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن الريح واقفة

فلا تلمس يد القرصان

لا تصدق

لا تصدق

فهي مذبحة[1].

ب- العدو - البرابرة:

أشار الشاعر إلى أثر وجود العدو على المحيط العربي الذي قرر أن يلعب دور الغائب، والضحية الخائفة من هجوم البرابرة المنتظر، لقد بات وجود الصهاينة حلا يريح هذه المنطقة من اختيار طريق للفعل، لتركن إلى السلبية التي تجعلها تدير ظهرها لهذا الفلسطيني خوفا من غضبة البربري وهجومه. لقد أظهر الشاعر العدو برابرة يحتاجهم الضمير العربي في واقعه المهزم لتبرير هزيمته والارتخاء اليها. هذا البربري المنتظر بات ضرورة يخلقها هذا الضمير ويثير زوابع الخوف فيها. ليغلق على نفسه ويدير ظهره، لذلك كلما ذهب برابرة سيأتي برابرة آخرون، لأن وعي الهزيمة سيعيد خلقهم، يقول في قصيدته "سيأتي برابرة آخرون":

ستخطف إمرأة الامبراطور سوف تدق الطبول، ويأتي برابرة آخرون

برابرة يملأون فراغ المدائن، أعلى قليلا من البحر، أقوى من السيف وقت الجنون

فما شأننا نحن؟ ما شأن أولادنا بسلالة هذا المجون[2]

وقد عبر درويش عن هذا الموقف في مقال له بعنوان "في انتظار البرابرة":

---

[1] المصدر السابق، ص ٧١.

[2] د. ورد أقل، ص ٣٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"متى يضربون؟ متى يضربون وأين سيضربون؟ لقد اعتدنا هـــذا الســؤال اللجوج منذ اعتدنا انتظار البرابرة، الذين لم يصلوا في القصيـــدة المذكــورة إلـــى الإسكندرية، ولكنهم استوطنوا واقعنا ووعينا منذ مدة طويلة، لتنصـــرف المؤسســـة العربية إلى حل عقدتها معنا. لقد وضع البرابرة الجدد الحدود في جيوبهم فصـــاروا يطلعون من حياتنا بشكل أليف مألوف. ولكن متى يضربون هـــذه المـــرة، وأيـــن يضربون هذه المرة؟ سؤال مشدود كأوتار الرعب في المحيط إلى الخليج ليلة قـــدر معكوسة. وطويلة. يتطلع حراس الليل إلى قمرها الساخر فـــي انتظـــار الـــبرابرة الطالعين من مكان آخر ربما من سلاحهم الشخصي، وربما من شاشة التلفزيـــون... نحن نربي استلابنا لنكسر حدود العلاقة التقليدية بين العدو والسيد، لنصوغ عبوديـــة ذات أصالة وحداثة.. يحتفل عبرها الإنسان بقدرته الفذة على أن يتطور إلى عبـــد.. لينتهي عند صياغة الصورة المشتهاة: صورتنا في مرآة غرب نتوسله أن يقبـــل طاعتنا.. هل وصل البرابرة؟ هل وصل البرابرة؟ لقد كانوا نوعـــا مـــن الحـــل[1]"
وضمن هذا الإطار كتب الشاعر قصيدته "يعانق قاتله":

يعانق قاتله كي يفوز برحمته: هل ستغضب مني كثيرا إذا ما نجوت؟

أخي.. يا أخي ! ما صنعت لتغتالني ؟ .. فوقنا طائرات فصوب إلى فوق !

أطلق جحيمك أبعد مني.. تعال إلى كوخ أمي لتطبخ من أجلك

الفول. ماذا تقول؟ وماذا تقول؟ مللت عناقي ورائحتي هل تعبت

من الخوف في؟ إذن، إرم هذا المسدس في النهر، ماذا تقول؟ عدو على

ضفه النهر صوب رشاشه في اتجاه العناق؟ إذن أطلق النار نحو العدو لننجو

معا من رصاص العدو ننجو من الإثم. ماذا تقول؟ ستقتلني كي يعود العدو

إلى بيته/ بيتنا وتعود إلى لعبة الكهف، ماذا صنعت بقهوة أمي

---

[1] محمود درويش، في انتظار البرابرة، مجلة الكرمل، عدد ١٨، ص ٤،٥،٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأمك؟ ماذا جنيت لتغتالني يا أخي. لن أحل وثاق العناق

ولن أتركك؟[1]

في هذه القصيدة طرح الشاعر العلاقة العربية الفلسطينية وانعكاس وجـــود العدو عليها، فالعناق يمثل التوحد في الموقف، لكن الطرف الآخر يلجأ لعناق القاتل، وهو قاتل مشترك للطرفين الفلسطيني والعربي ولذلك يلجأ الشاعر إلى إسناد القـاتل إلى الضمير عائدا على الأخ، الذي توجه بالاغتيال إلى الشاعر الذي يطلب إليـه أن يبعد جحيمه ويدعوه إلى كوخ الأم، والعودة إلى كوخ الأم هو عودة إلـى الروابـط التي توحد بينهما فالأم صلة النسب "الأرض الواحدة" فضـلا عـن كونـها رمـزا لمشاعر المودة والرحمة فهو يريد أن يعودا للاجتماع في ظل روابط حميمة توحـد وجودهما. إلا أن صوت الأخ الذي يأتي غير مفهوم فيكرر الشـاعر سـؤاله مـاذا تقول؟ يعلن إنهاء العناق فقد مل ارتباط مصيره بمصير الشاعر، أي ارتباط الأنظمة العربية بالقضية الفلسطينية وتبعاتها "الخوف". وحين يشير الأخ إلى العدو الذي على ضفة النهر مصوبا رشاشه نحو عناقهما؟ فهذه إشارة إلى وجود العدو الصـهيوني ووضعه الحدود التي يريد أن ينطلق منها لاحتلال أراض جديدة ليوسع حلم امتداده، فيرد الشاعر بطلب إطلاق الرصاص على العدو لتكون نجاتهما مشتركة فيه، إلا أن الأخ يفضل عدم المواجهة والخلاص من الشاعر، ليقف العدو عند حدوده ويعـود عن تهديده لاحتلال الأخ فيعود إلى (بيته/بيتنا)، لقد توقف الأخ عن الرغبة في الفعل التحريري ويسلم بيت الشاعر البيت المشترك العربي الفلسطيني للعدو ليدير ظـهره واختار لعبة الكهف "التقوقع والغياب"، ليطرح الشاعر سؤاله الحزين مـاذا فعلـت بقهوة أمي؟ إشارة إلى الأصل الواحد والاشتراك في القضايا الذي يدفع الشاعر إلـى إعلان تمسكه بالعناق. لقد ظهر العدو هنا وقد خلق الحاجز الوجودي بين الفلسطيني وامتداده العربي، هذا الامتداد الذي تراجع تحت تهديد الخوف والميل للسلامة.

---

[1] د. ورد أقل، ص ٣٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد اختار الشاعر في ظل هذه الدلالة وصف البرابرة للعدو وهو وصف لا يرتبط فقط بخلق التهديد والهجوم المتوقع، وإنما يشير إلى رؤية الشاعر لوجود العدو ذي الطابع التخريبي الهمجي الذي يمثل تهديدا للحضارات، وفي هذا السياق يختار الشاعر رمزا جديدا لوجود العدو. "المغول" في قصيدته "هدنة مع المغول أمام غابة السنديان" من ديوانه "أرى ما أريد" وقد استخدم هذا الرمز في سياق يعبر من خلال رؤيته الفنية عن مراحل الاحتلال.. التي يأتي فيها "المغول" "العدو الصهيوني".. لقد كان الشاعر في مراحل سابقة يلجأ إلى استخدام رمز "الروم" في وصف الوجود الصهيوني على الأرض الفلسطينية الا أنه استبدله برمز المغول وذلك يغني بعدين:

١- بعد الوحشية البربرية الهمجية المدمرة التي اجتاحت الشرق موجة عاصفة لا تعرف الا قوانين الغزو وقتل أرض الشرق.

٢- في الوقت الذي دل فيه وجود الروم على مرحلة لازمتها صحوة عربية قارعتهم وأخرجتهم من الأراضي العربية، يمثل الغزو المغولي فترة بلغت فيها الدولة العربية أشد ضعفها وعجزها عن المقاومة، فاجتاحتها قوات المغول الذين ارتبطت صورتهم بسقوط الخلافة العباسية وإغلاق الحضارة العربية على نفسها أبواب الهزيمة والتراجع. يقول الشاعر في القصيدة:

كل قلب هنا لا يرد على الناي يسقط في

شرك العنكبوت، تمهل تمهل لتسمع رجع الصدى

فوق خيل العدو، فإن المغول يحبون خمرتنا

ويريدون أن يرتدوا جلدا زوجاتنا في الليالي، وأن

يأخذوا شعراء القبيلة أسرى، وأن

يقطعوا شجر السنديان

***

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المغول يريدوننا أن نكون كما يبتغون لنا أن نكون

حفنة من هبوب الغبار على الصين أو فارس، ويريدوننا

أن نحب أغانيهم كلها كي يحل السلام الذي يطلبون

سوف نحفظ أمثالهم.. سوف نغفر أفعالهم عندما يذهبون

مع هذا المساء إلى ريح أجدادهم

خلف أغنية السنديان[1]

فالمغول يريدون أن يحلوا مكان أصحاب الأرض "غابة السنديان" فهم يحبون خمرتنا ويريدون ارتداء جلود زوجاتنا، وهم يأخذوه الشعراء أسرى، وفي العادة يؤسر الجنود لكن الأرض لم تجد من يحميها سوى الشعراء وقطع شجر السنديان أي إبادة أبناء الأرض الراسخين عليها. وهم بعد ذلك يريدون إعادة تشكليها كما يرغبون أن تكون. هباء يتناثر بعيدا فوق الصين أو فارس فالعدو "المغول" يريد إنهاء أي دور ووجود حضاري فاعل لنا وإلغاء هويتنا الدخول في هويتهم وأن نقبل منطقهم، فنحب أغانيهم لكي يهبونا السلام الذي يقدم لهم ما يريدون، فالعدو يحتلنا، ويلغينا ويشكلنا ويفرض الحرب ويفرض السلام.. لكن رد الشاعر على كل هذا بأننا سنأخذ منهم ما نتعلمه ونغفر لهم عدوانهم علينا، عندما يرحلون ليلحقوا بأجدادهم، معبرا عن رفض وجودهم وعدم القبول به.

إلا أن الشاعر يسير في رؤيته ليصل إلى صورة يظهر فيها الطرفان خاسرين وقد فقد كل منهما معالمه التي كانت تؤجج الصراع ليصلا إلى حالة تنتهي فيها الحرب وينتهي منها السلام يقول في ختام القصيدة:

لم نجد أحدا يقبل السلم.. لا نحن نحن ولا غير غيرنا

البنادق مكسورة.. والحمام يطير بعيدا بعيدا

---

[1] ق. هدنة مع المغول، أمام غابة السنديان، د. أرى ما أريد، ص ٤٠٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لم نجد أحدا ههنا

لم نجد أحدا

لم نجد غابة السنديان[1].

ج- العدو والتاريخ:

لقد ظهرت عند الشاعر الكثير من الإشارات إلى العدو وهو يقيم وجوده على الأسطورة وينبش الآثار ليصنع وجودا زائفا، وفي هذه المرحلة ظهر خطاب الشاعر للعدو في السياق التاريخي ضمن إشارتين، إشارة تمثلها قصيدته "لصوص المدافن" وتظهر العدو في محاولته تمزيق التاريخ وإقامة وجوده بسرقة معالم الوجود الفلسطيني والإشارة الثانية تمثلها قصيدة "عابرون في كلام عابر" التي تعتمد على حركة التاريخ في تثبيت صناع الحضارة وإعادة الحق ولفظ العابرين عليها. يقول في "لصوص المدافن":

لصوص المدافن لم يتركوا للمؤرخ شيئا يدل علي

ينامون في جثتي أينما طلع العشب منها، وقام الشبح.

يقولون مالا أفكر. ينسون ما أتذكر، يعطون صمتي

ذرائعهم. فاستريحوا قليلا، لصوص المدافن، في الوقت متسع للضحية

لتجري حوارا عن الوقت مع قاتل قد يكون الضحية

وعودوا إلى أهلكم، ربما احتاج أطفالكم لعبة غير قلبي في بندقية

***

ألا تستطيعون ان ترتدوا غير قبري القديم/ الجديد.. هوية؟

***

---

[1] المصدر السابق، ص ٤١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذن من هو الحي فينا؟ من هو الحي في هذه المسرحية[1]؟

لقد وصف الشاعر العدو "بلصوص" المدافن لأنه يعتمد على إثبات وجوده على سرقة تاريخ غيره وادعائه لنفسه، ليصنع هويته من وجود ضحيته، فالعدو لا يبدو قادرا على إنشاء حياة ذاتية تستقل عن احتياجها، للضحية، لتكون، فتسرق من قبور تاريخ الضحية لتعطي شرعية لوجودها هي وتصنع قبورا جديدة، لتبقي وجودها ويطالب الشاعر العدو بالخروج من وجوده، وجود الإنسان الفلسطيني، بالتوجه بالخطاب لمجموعهم بالعودة إلى أهلهم لإقامة حياة عامرة يحتاج فيها أطفالهم إلى أشياء أخرى غير تعلم قتل الضحية، إن احتياج هذا الوجود إلى القتل ونبش القبور لإثبات نفسه لهو تأكيد حقيقي على موت الجاني، في التاريخ والحاضر فهو يسعى إلى إعمار حياته على خرائب الموت لذلك يطرح الشاعر سؤاله من هو الحي فينا ؟ القاتل الذي قد يكون ضحية نفسه، أم الضحية التي يصنع الجاني وجوده من وجودها.

لقد عمق الشاعر خطابه المطالب للأعداء بالرحيل في قصيدته "عابرون في كلام عابر" التي جاءت استجابة لذلك التأجيج الحماسي الذي أشعلته انتفاضة الحجارة ١٩٨٧ بدلالتها على استمرار الشعب الفلسطيني في إعلان وجوده وانتمائه رغم كل محاولات الإلغاء والطمس، وفيها توجه الشاعر بالخطاب إلى جموع اليهود في فلسطين. وأريد أن أشير في هذا الصدد إلى أن محمود درويش لم يعد يقيم ذلك الفاصل بين وجود السلطة الصهيونية والجموع اليهودية في فلسطين كما ظهر في قصائده قبل خروجه التي كان يسعى فيها إلى خلق فاصل قد يمنح اليهود البراءة من الصهيونية إذا ما استجابوا لوعيهم وخرج من فلسطين وهو يتمزق عليهم إلى جانب تمزقه على شعبه، وقد ظهر هذا التراجع عن هذا الفصل عنده في مقابلة أجراها بعد خروجه من بيروت مجيبا على سؤال المحاور له :

---

[1] د. ورد أقل، ص ٣٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((- لا تتحدث، ومنذ بداية حوارنا، إلا عن اليهود، دونما تفريق بينهم وبين الإسرائيليين وبين الصهاينة، هناك تغير في اللغة وفي الموقف ؟

_ هو ليس تغيرا في فهم الصراع . كل الشعوب في العالم خاضعة لابتزاز إسرائيلي هو أنه علينا أن نحذر من استعمال لفظة "يهودي" في الوقت الذي لا يتصرف فيه اليهود ولا يتاسسون ولا يتحركون إلا على أساس "التفوق اليهودي" و"الحق اليهودي" و"الدلع اليهودي" أنا لا اشتمهم حين اسميهم بـ"اليهود" مثلما لا اشعر بأي إهانة حين يسموننا بـ"العرب" هذا لا يعني أنني لا أميز بين يهود متعصبين ويهود مسالمين أما العقلية اليهودية السائدة في المجتمع الإسرائيلي فهي تقدم أدلة يومية على إمكانية عودة الفكر الغربي إلى مرحلة العداء للسامية .))[1]

ويقول في الإجابة على سؤال سابق : "لقد برهن يهود إسرائيل أنهم مصرون على بعث مفاهيم التلمود الظلامية . وهي أن العالم ينقسم إلى قسمين اليهود وغير اليهود . وأن علاقة اليهود مع غيرهم علاقة عداء . لقد أصروا على إحياء ابشع ما في الصورة اليهودية . وهو عدم إمكانية تعايشهم مع غيرهم من الشعوب . فالفكر الصهيوني مغلق إلى درجة قتل الآخر. أعتبر أن لا مستقبل لعلاقات إنسانية وعادية بين الصهيونية وأي شعب عربي أو غير عربي . ففي خلفية الفكر الصهيوني تقوم فكرة أن كل الأمم والشعوب معادية لليهود."[2]

والشاعر في القصيدة يتوجه بخطاب عام إلى المحتلين يريد فيه أن يعزف على أوتار وعيهم الباطن المدرك أن وجودهم على الأرض ليس إلا نوعا من الاحتلال وقد عبر درويش عن هذا الإدراك في إحدى المقالات التي يذكر فيها قولا لـ "بن غوريون" يتساءل فيه عن إقامة الفلسطينيين سلاما مع اليهود يقول : "لم يكن بن غوريون من "الغوييم" ولكن عقله الباطن كان يعرف أن الصراع ليس عرقيا ..

---

[1] شربل داغر، لقاء مع محمود درويش، كل العرب، ١٣، ص٥٠ .

[2] شربل داغر، لقاء مع محمود درويش، كل العرب، ١٣، ص٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

باح بن غوريون لصديقه ناحوم غولدمان، في ساعة متأخرة من ليالي "سديه بوكـو" بقلقه على المستقبل، وقـال "لماذا يعقد العرب صلحا ؟ فنحن الذين أخذنا أرضـهم " ونحن الذين أخذنا أرضهم، هل ذلك ما يدفع الباطن الإسرائيلي إلى الجنـون مـن تجليات ذاكرة الحاضر العربية " [1].

ولقد أصابت القصيدة هنا الوعي الإسرائيلي فجاءت ردود الأفعال ضدها من طرفه قاسية ومشوهة للقصيدة وقد أورد حاتم الصكر في مقالته عن الحجر والهيكل العظمي للهدهد بعض تلك الردود فإلى جانب أنها أغضبت الكنيست، تصفها إحـدى الجرائد بأنها وحدت الكنيست "ويتساءل عاموس كينان ما الذي يعنيه درويش بنحن؟ ورثى لحال الشعر واصفا إياه بالرداءة لأنه تحدث بـ"نحن" وهـي عنـده علامـة افتراق الشاعر عن أناة التي تخلق القصيدة والتي لا شعر بدونها ... وإسحاق شامير يطلق رصاصاته على القصيدة من مبنى الكنيست فيقول : "أنـها قصيـدة خرقـاء لشاعر مشبوه،.. ويصف يائيل إتيان القصيدة بأنها "هستيرية" و"استفزازية" .." [2]

والقصيدة تعتمد مستوى في الخطاب يمثل رؤية الشـاعر لحقيقـة الوجـود الصهيوني على الأرض الفلسطينية في مقابل الحق والوجود الفلسـطيني العربـي عليها، ويعود الشاعر فيها إلى استخدام صيغة "العابرون" التي كان قـد اسـتخدمها سابقا في قصيدة الأرض، في إشارة إلى المقولة اليهودية عن العبور التي لا تجعـل من وجودهم استقرارا، وقد ظهر كيف أعلنت الأرض انهم لن يمروا، هذا المـرور الذي يرى الشاعر انه يتم بين كلمات عابرة هذه الكلمات التي يرى عبـد الرحمـن ياغي أنها تمثل خرافاتهم وأساطيرهم التي لا تعطي حقا فهي عابرة كما هـم عابرون يقول: ((.. يحاولون التشبث ببعض الكلمات التي لا تحمل معنى .. كلمـات

---

[1] محمود درويش، عابرون في كلام عابر، ص٥٣-٥٤ .

[2] حاتم الصكر، عن الحجر والهيكل العظمي لليهود، مجلة الكاتب العربي، عدد ٢٣، ص٧١-٧٢، وقـد اعتمد الكاتب على مقالة سيمون بيتون المترجمة في مجلة الكرمل عدد ٢٩ تحت عنـوان "الشـاعر والهراوة" في إيراد ردود أفعال الصهاينة عن القصيدة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فارغة من مدلولاتها، كلمات هشة، كلام فارغ يمضي إلى مغاور الخرائب، وليحتفي فيها ويعتمد الخرافات ليتوكأ عليها . ويتوهمون أن الله أعطاهم هذه واختارهم من بين سائر البشر، وأن التوراة قد حددت لهم أرض الميعاد .

أفلست هذه كلها كلمات لا تقف على ساقين ؟ أفلا تحمل خواءها فيها ؟ ومن هنا كان حرص هؤلاء العابرين على المرور بين هذا النوع من الكلمات العابرة[1] .

يقول الشاعر:

أيها المارون بين الكلمات العابرة

احملوا أسماءكم، وانصرفوا

واسحبوا ساعاتكم من وقتنا وانصرفوا

واسرقوا ما شئتم من زرقة البحر ورمل الذاكرة

وخذوا ما شئتم من صور، كي تعرفوا

أنكم لن تعرفوا

كيف يبني حجر في أرضنا سقف السماء [1]

هذه المعرفة التي تمثل الفارق بين الوجود في تفاعله مع الأرض وإخصاب الحياة الحضارية والاستقرار عليها، ففي الوقت الذي ارتبط وجودهم بمظاهر الوجود "صور" يأتي وجودنا بناء تتفاعل فيه عناصر الإنسان والأرض والحجر "تفاعلا" حين يبني سقف السماء فهو يحقق الإنسانية بمغزاها الإعماري. هذا الفارق بين القدرة على الوجودين يدفع الوجود الهش إلى فرض صيغة تبرز عدم معرفته بقوانين الحياة أو صنع الحياة فيعتمد العنف وقهر الآخر بأسلحة دموية يواجهها

---

[1] عبد الرحمن ياغي ن محمود درويش في مرحلة النضج والتفوق، زيتونة المنفى دراسات في شعر محمود درويش ص١٢٩ .

[1] محمود درويش، عابرون في كلام عابر ن ص٤١، ملاحظة، القصيدة لم تطبع في المجموعة فعدت على كتاب درويش "عابرون في كلام عابر" لتناولها لأهميتها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنسان هذه الأرض، بمكونات حياتية، دم ولحم يرتبطان بالحجر وهذا هو الفارق بين الوجودين، وجود يخلق من آلة الدمار، ووجود يهب الحياة في سبيل الاستمرار .

منكم السيف ومنا دمنا

منكم الفولاذ والنار ومنا لحمنا

منكم دبابة أخرى - ومنا حجر

والعدو في سعيه لخلق شرعية وجوده يستند على اغتصاب التاريخ في ظل أسطورة تشرع له وهم وجوده فيطالبهم الشاعر بأخذ هذا الماضي إلى المتحف لأن الحاضر والمستقبل سيكون ملكا لابن الأرض المرتبط بها وقد اختار الشاعر في عقد هذه المقارنة طائري الهدهد والحجل ((الهدهد رسول سليمان إلى رغباته بالفتوحات من هيكل عظمي لم يبق منه إلا ما يتركه الزمن لجثة متفسخة. أما الفلسطيني فله حجل يطير في فضاء الحاضر صوب سماء المستقبل حجل وهدهد ومستقبل وماض))[1]

ولنا ما ليس يرضيكم هنا :

حجر .. أو حجل

فخذوا الماضي، إذا شئتم، إلى سوق التحف

وأعيدوا الهيكل العظمي للهدهد، إن شئتم

على صحن خزف

فلنا ما ليس يرضيكم : لنا المستقبل

ولنا في أرضنا ما نعمل [2]

---

[1] حاتم الصكر، عن الحجر والهيكل العظمي للهدهد ن ص٧١ .

[2] محمود درويش، عابرون في كلام عابر، ص٤٢،٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن اقتصار المرور لهؤلاء العابرين، ليكون بين الكلمات العابرة في الوقت الذي يطالبهم الشاعر فيه بعدم المرور في تفاصيل حياتنا. مع امتلاك الماضي والحاضر والمستقبل للمتكلم يجعل الوجود الصهيوني غير متحقق إلا في الوهم والكلمات التي يمرون فيها في حين يكون عدم مرورهم في عناصر الحياة التي يتكلم عنها الشاعر تأكيدا على عدم تحقق وجودهم بمفهوم الوجود الحضاري الذي سيجعل لهم مكانا، أو أثرا، هذا المكان أو الأثر الذي لن يتحقق لهم فهم سيخرجون حتى من ذكريات الذاكرة، من التاريخ :

ولتموتوا أينما شئتم، ولكن لا تموتوا بيننا

فلنا في أرضنا ما نعمل

ولنا الماضي هنا

ولنا صوت الحياة الأول

ولنا الحاضر والحاضر والمستقبل

***

فاخرجوا من أرضنا

من كل شيء واخرجوا

من ذكريات الذاكرة

أيها المارون بين الكلمات العابرة[1]

صورة العدو في شعر محمود درويش حتى ١٩٩٥

جاءت هذه المرحلة وقد وصل فيها المخطط السياسي إلى توقيع معاهدات السلام مع العدو الإسرائيلي، هذه المعاهدات التي رأى فيها الشاعر ظلما وتضييعا لحقوق شعبه وقد عبر الشاعر عن موقفه من المعاهدات ووجهة نظره في السلام مع

---

[1] محمود درويش، عابرون في كلام عابر، ص٤٢،٤٣ .

٥١٦٣٥٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإسرائيليين وجديتهم فيه، في إحدى المحاورات مع الجمهور الفرنسي مجيبا على هذه الأسئلة :

"– كنت أصلا معارضا لاتفاقات أوسلو، واستقلت من عضوية اللجنة التنفيذية في عام ١٩٩١، فلسطينك أنت، ما هي يا محمود درويش ؟

– صحيح أنني قرأت اتفاق أوسلو قبل أن يعلن، واطلعت في وقت مبكر على ما كان يجري في أوسلو، ولم أصدق أن هذه المفاوضات ستسفر عن اتفاق، ولذلك عندما تم التوقيع بالحرف الأولى، قدمت استقالة مشروحة بدقة، تحمل نقدا فكريا وسياسيا لاتفاق أوسلو . من منطلق أن هذا الاتفاق ليس اتفاقا عادلا، ماذا أعني بالعدل؟ لا أعني العدل المطلق، إذ ليست هناك عدالة تامة ولا حتى نسبية، ولكن اتفاق لا يوفر حتى الحد الأدنى من إحساس الفلسطيني بامتلاك هويته الفلسطينية، ولا جغرافية هذه الهوية، إنما يجعل الشعب الفلسطيني مطروحا أمام مرحلة تجريب انتقالي ... انتقالي إلى ما هو غامض . لقد رفضت المرحلة الانتقالية لأنها لا تحدد إلى أي هدف ستنتهي، وبخاصة أن هذه المرحلة لا تشمل البحث في الملفات الأساسية للقضية الفلسطينية : مسالة اللاجئين والاستيطان . وحق تقرير المصير، والقدس، ولم أر في الاتفاق إلا حلا إسرائيليا لمشاكل إسرائيلية، وأن على منظمة التحرير أن تمارس دورها في حل مشاكل الأمن الإسرائيلية .

ومع ذلك ورغم هذه القراءة النقدية للاتفاق، قلت أنني لا أستطيع أن أقبل الاتفاق. ولا أستطيع أيضا أن ارفضه لأنه مخاطرة تاريخية لا يستطيع ضميري أن يتحمل حرمان الشعب الفلسطيني من إمكانية حل ما، وكان هناك صراع بين عقلي وقلبي، واعتقدت أن ديناميكية الواقع قد تكسر قيود هذا الحل الإسرائيلي، فإن حاجة إسرائيل إلى السلاح مع العرب وحاجتها إلى فك العزلة الدولية عنها قد تدفعها إلى تلبية الحد الأدنى من المطالب الفلسطينية . ولكن ما دامت البوابة الفلسطينية قد فتحت، وحارس بناية السلام العربي الإسرائيلي – الفلسطيني قد أعطى المفتاح لهذه الحركة، فإن السلوك الإسرائيلي يرهن على أنه غير معني بإنشاء السلام مع

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفلسطينيين . سواء أكان الأمر مع حزب العمل أو حزب الليكود . إنهم يحتاجون إلى رشوة الفلسطيني من أجل الانطلاق نحو العمل الأساسي، وهو السلام مع العرب وهكذا أسفر الواقع التجريبي بعد ثلاث سنوات عن شيء أكثر مأساوية، وأكثر سخرية وهو أن نص أوسلو أفضل من الواقع الذي أنتجه هذا النص[1] .

وفي ظل هذا الموقف أصدر الشاعر في هذه المرحلة ديواني "أحد عشر كوكبا" و "لماذا تركت الحصان وحيدا" ١٩٩٥ والديوان الأول بصدوره قبل توقيع الاتفاقيات مثل رؤية الشاعر لأثر هذه الاتفاقيات على مسيرة الشعب الفلسطيني وترسيخ الاحتلال في مرحلة تلغي الوجود التاريخي الفلسطيني على أرضه حيث يكتمل تبادل المواقع فترتدي الضحية زي ضياع قاتلها، ويستقر العدو على أرض الحضارة . أما الديوان الثاني فشكل إعادة صياغة لوعي الذات في سياقها الجماعي هذا السياق الذي احتل فيه الآخر العدو مساحات في الذاكرة والتحدي الوجودي . والحقيقة أن صورة العدو تظهر من خلال الموقف الذي يتخذه الشاعر وهو أكثر اعتناء بقضايا الأنا ومصيرها .

العدو والسلام

أدرك الشاعر نصوع حقيقة أن العدو لا يمكن أن يقيم سلاما حقيقيا وان أي سلام سيقام لن يكون أكثر من "تسوية" ليستريح الأعداء ويتمتعوا بخيرات الأرض . هذه الحقيقة التي تحاول الاتفاقيات تمويهها في ظل رسم واقع معتم يعاند وجه الحقيقة ويكابر نصوع بياض الثلج باستسلام لسواد الواقع :

للحقيقة وجهان، والثلج اسود فوق مدينتنا

كل شيء معد لنا سلفا، من سينزع أسماءنا

عن هويتنا أنت أم هم ؟ ومن سوف يزرع فينا

---

[1] محمود درويش المختلف والحقيقي دراسات وشهادات، ص٣٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خطبة التيه :"لم نستطع أن نفك الحصار

فلنسلم مفاتيح فردوسنا لوزير السلام، وننجو .."[1]

وهذه المعاهدة ستلغي الزمن الفلسطيني لتهبه للأعداء "الفاتحون" لنقترب من حالة انتهاء حضاري يبدو فيها الفتح العربي وقد انتهى ليستقر اليهود على الأرض فاتحين جدد . نمجد فيه انتصارهم، فنقدم لهم بأيدينا شاينا الأخضر، والفستق الطازج –مظاهر الجمال والرفاهية في البلاد– متنازلين عن أفضل بقاع فلسطين لهم . وينسحب الفتح القديم –الوجود العربي الفلسطيني– إلى الجنوب (غزة – أريحا) تنازلا عن الذاكرة التي تربط الإنسان بتلك الأرض، هذه الذاكرة التي يطلب درويش من الماء أن يكونها بما يتصف به من عدم ثبات أو أبعاد يرتكز عليها . ليبدو المسير الفلسطيني كما لو أنه إلى ضياع :

كي لجيتارتي وترا أيها الماء، قد وصل الفاتحون

ومضى الفاتحون القدامى، من الصعب أن تذكر وجهي

في المرايا

ومضى الفاتحون القدامى، جنوبا شعوبا ترمم أيامها

في ركام التحول . أعرف من كنت أمس، فماذا أكون

في غد تحت رايات كولومبس الأطلسية[2]

ويقول :

نتملى الجبال المحيطة بالغيم : فتح .. وفتح مضاد

وزمان قديم يسلم هذا الزمان الجديد مفاتيح أبوابنا

فأدخلوا أيها الفاتحون منازلنا، واشربوا خمرنا

---

[1] للحقيقة وجهان والثلج اسود، د. أحد عشر كوكبا، ص١٩ .

[2] ق. عن لجيتارتي وترا أيها الماء، د. أحد عشر كوكبا، ص٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من موشحنا السهل .....

شاينا أخضر فاشربوه، وفستقنا طازج فكلوه[1]

إن استخدام الشاعر لتعبير "فاتحون وفتح" بديلا عن الغزاة فذلك تأكيد لدلالة الاستقرار، مما قاد الشاعر إلى استحضار "كولومبس" متمثلا في مصير الهنود الحمر في أمريكا مصيرا لشعبه، حين جاء قطاع الطرق والفارون والطامعون من كافة أصقاع الأرض ليستولوا على أرضهم قاضين على وجودهم الذي عمر بلادهم بآلاف السنين على مهل .. وقد أفرد الشاعر في ديوانه "أحد عشر كوكبا" قصيدة لخطبة الهندي الأحمر أمام الرجل الأبيض كحالة من التشابه في المصير .

والشاعر لا يثق بالسلام مع العدو فيصفه بسلام الذئب والغزالة، هذا السلام المستحيل والذي يخدم شهوة الذئب للفتك بالغزالة، يقول :

... لا بد من ذاكرة

لننسى ونغفر حين يحل السلام النهائي ما بيننا

وبين الغزالة والذئب لا بد من ذاكرة[2]

والشاعر في ظل سير المصير الفلسطيني الذي يعززه هذا السلام يرى أنهم وقعوا في حالة من تبادل المواقع مع العدو، فحين كان العدو في الماضي يبكي تهجيره ورحيله الأبدي كنا نستقر في أرض كنعان، والآن نحن نرتدي أثواب عدونا ونأكل خبز الرعاة لندخل حالة البداوة في تمثيلها لعدم الاستقرار باكين على وطن مضاع، في ظل قمر احمر كناية عن سفح دماء الشعب الفلسطيني في المنافي على يد الأنظمة الأخرى التي وصفها الشاعر بإناث الوحوش، ليكون العدو الصهيوني ذكرها، وهذا التبادل في المواقع يجعل الشاعر يطرح سؤالا لا يتهرب فيه من إدانة الذات، تساؤلا عن إذا ما كان القدر ما صنع بنا ما نحن فيه أم نحن، ويبدو أن

---

[1] ق. في المساء الأخير على هذه الأرض، د. أحد عشر كوكبا، ص ٩ .

[2] ق. سنختار سوفوكليس، ص٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السؤال يسقط الآخر من تحديد هذا المصير فنحن من يمسك نصل المأساة ويحمـــل مسئوليتها :

يسامرنا ظلنا في الجنوب، وتعوي إناث الوحوش

على قمر أحمر فوقنا، سوف نلمس خبز الرعاة

ونلبس كتان أثوابهم كي نفاجئ أنفسنا ..

تلك أيامنا

****

تمر على عربات الجنود وترمي تحيتها للسفوح الخفيفة

"سلاما على أرض كنعان، أرض الغزالة والأرجوان"

وأيامنا تلك

تنسل خيطا وخيطا، ونحن الذين

نسجنا عباءة ايامنا، لم يكن للآلهة دور .

سوى أنها سامرتنا، وصبت لنا خمرها ..

تلك أيامنا[1]

وفي الملجأ الحضاري الذي يأوي إليه الشاعر، فيقف حجرا كنعانيا -دلالـــة على الارتباط الحضاري- على البحر الميت[2] الذي قد لا يعكس أي رؤى حيـــة إلا أن هذا الحجر يثبت نفسه على إطلال ذاكرته الحضارية التي يطلب من العدو وقـــد استقر أن يعطي نفسه فرصة تعلم الحضارة منها وحياة السلام . هذا الغريب الـــذي جاء وقتل وورث الأرض ليزداد البحر ملحا في إشارة إلى أن العدو لا يعرف كيف

---

[1] قز سنختار سوفوكليس، د. أحد عشر كوكبا، ص٧٢ .

[2] في إيضاح دلالة هذا الرمز راجع كتاب احمد الزعبي "الشاعر الغاضب محمود درويش" ص٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يزهر حضارة تبث الحياة . هذه الحضارة التي امتلكها الإنسان طالبا من الغريب أن يعلق سلاحه ليتعلم منها إذا استطاع .

وأنا أنا، حرب علي وفي حرب .. يا غريب

علق سلاحك فوق نخلتنا، لأزرع حنطتي

في حقل كنعان المقدس .. خذ نبيذا من جراري

****

وخذ عاداتنا

في الري، خذ منا دروس البيت . ضع

حجرا من الآجر، وارفع فوقه برج الحمام

لتكون منا إن أردت، وجار حنطتنا، وخذ

منا نجوم الأبجدية، يا غريب

****

أتيت .. ثم قتلت .. ثم ورثت، كي

يزداد هذا البحر ملحا ؟[1]

العدو وإعادة صياغة وعي الذات

في إعادة هذه الصياغة كان الماضي الواضح البسيط برؤيته البسيطة يتدفق وفيه تتمازج أصوات مشاهد ترسم ملامح هذا الماضي يظهر فيها صـــوت العـــدو القادم متمازجا مع صوت الصغير، والأم والأب، وفي هذا التدفق يستعيد الشـــاعر صيغة القتل المعهودة للعدو "احصدوهم" في دخوله الدموي، وشـــاحناته العســـكرية والبنادق التي صنعت غياب هذا الإنسان، يقول :

---

[1] ق. على حجر كنفاني في البحر الميت، د. أحد عشر كوكبا، ص٥٧-٥٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أطل على نورس، وعلى شاحنات جنود

تغير أشجار المكان[1]

ويقول :

لم نعد قادرين على الانتباه، وحين

التفتنا إلى الشاحنات رأينا الغياب

يكدس أشياءه المنتقاة، وينصب

خيمته الأبدية من حولنا [1]

ويقول :

ههنا حاضر

عابر

ههنا علق الغرباء بنادقهم فوق

أغصان زيتونة، وأعدوا عشاء

سريعا من العلب المعدنية، وانطلقوا

مسرعين إلى الشاحنات

وفي الخروج يمر الشاعر في "أبد الصبار" على مشاهد احتلال الأرض عبر التاريخ في مسيرة الابن مع أبيه فكأن هذا الأبد خلق للألم، فمن ظلال جنود بونابرت على أسوار عكا إلى، الإنجليز وصلبهم الأب على الصبار ووصول جنود يهوشع بن نون المحتلون اليهود الجدد ليصل الشاعر إلى"درب قانا، درب المجزرة" إلى ذكريات عن الإنكشاري العثماني، ذكريات توهج في الأب تاريخا كان ينتصر فيه هو وأبوه وجده وتغيب القلاع الصليبية تحت حشائش نيسان :

---

[1] أرى شبحي قادما من بعيد، د. لماذا تركت الحصان وحيدا، ص١١ .

[2] ليلة البوم، د. لماذا تركت الحصان وحيدا، ص٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

– وهما يخرجان من السهل، حيث
أقام جنود بونابرت تلا لرصد
الظلال على سور عكا القديم
يقول أب لابنه : لا تخف، لا
تخف من أزيز الرصاص ! ..

***

وهما يعبران سياجا من الشوك
يا بني تذكر ! هنا صلب الإنجليز
أباك على شوك صبارة ليلتين

***

تفتح الأبدية أبوابها، من بعيد،
لسيارة الليل، تعوي ذئاب
البراري على قمر خائف، ويقول
أب لابنه : كن قويا كجدك
واصعد معي تلة السنديان الأخيرة
يا بني، تذكر: هنا وقع الانكشاري
عن بغلة الحرب، فاصمد معي
لتعود

***

وكان غد طائش يمضغ الريح

***

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان جنود يهوشع بن نون يبنون

قلعتهم من حجارة بيتهما . وهما

يلهثان على درب "قانا"

***

.. يا بني تذكر

غدا . وتذكر قلاعا صليبية

قضمتها حشائش نيسان بعد

رحيل الجنود[1]

ويرسم الشاعر هذا الحدث في انتظار وصول الغرباء إلى حربهم "النزهـــة". وذلك الهرب من وصول أسطورة وأغنية ومركبة الغرباء ...الخ. في قصيدته "نزهة الغرباء":

لا تسرعي في الخروج من البيت .. لا

شيء يمنع هذا المكان من الانتظار قليلا

هنا، ريثما ترتدين قميص النهار، وتنتعلين

هذا الهواء

لم تصل بعد أسطورة الغرباء[2]

هؤلاء الغرباء يحلون تتارا[3] على هذه الأرض ويبدأ الفلسطيني رحلة النأي حين تصير حياته مرتبطة بقطار يمر سريعا ليسكن الحلم ويعبر الحالمون من سماء لأخرى في رحلة غجرية تبتعد عن أندلس الحلم، لينتهي مشهد الوعي الأخير حيـــن

---

(1) ابد الصبار، لماذا تركت الحصان وحيدا، ص٣٢ .

(2) ديوان لماذا تركت الحصان وحيدا، ص٥٣ .

(3) قز سنونو التتار، د. لماذا تركت الحصان وحيدا، ص .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

استراح العدو "بصورة الجندي" في بيتنا واستقر فيه متخذا إياه بيتا، يشرب الشـــاي مطمئنا ويسند بندقيته على كرسي الجد، ليرث هذه الأرض بسلاحه . بعد أن كـــان يأتي زائرا نشاركه خبزنا، كناية عن حياة اليهود في فلسطين قبل الاحتـــلال حيـــث عاشوا بأمان . ونقف نحن أمامه حصانا أمام الطائرات ففروسية الإنسان لا تحميـــه من تفوق خصمه . ويغلق الشاعر هذا المشهد والعدو مستقر في بيتنا وقـــد رحلنـــا ولكنا تركنا رائحتنا فوق فناجين القهوة، هذه الرائحة التي يفتح بها بابا للتواصل مـــع المكان الذي يرفض الشاعر التسليم بالقطيعة معه ..

والعدو الذي لن يغير سترته العسكرية التي تلمع أزرارهـــا -تـــأكيدا علـــى العقلية العسكرية التي ستحكم العدو دائما- يبصق كلامنا، فـــهو لا يريـــد إجـــراء تواصل حقيقي مع الآخر . فمهما تغيرت الظروف وطرحت المصالحة معـــه فلـــن يتغير لأنه سيبقى ذلك الذي اقتحم ليلنا بالبندقية:

للعدو الذي يشرب الشاي في كوخنا

فرس من الدخان

في كوخنا يستريح العدو من البندقية

يتركها فوق كرسي جدي، ويأكل من خبزنا

مثلما يفعل ..

.....

سلم على بيتنا يا غريب

فناجين

قهوتنا لا تزال على حالها، هل تشتم

أصابعنا فوقها ؟ ..

..

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا الكلام الذي في ودنا

أن نقول له، كان يسمعه جيدا

جيدا

ويخبئه في سعال صريح

ويلقي به جانبا، ثم تلمع

أزرار سترته عندما يبتعد . [1]

وفي ظل المشهد الأخير يقف الشاعر أمام محكمة عسكرية "دولة الاحتـــلال" ليدين بصوته هو العدو الذي أخذ كل شيء واستقر وعاد ضباطه من الحرب سالمين بعد ان جندوا بنداء الأساطير، متقمصين دور ابن الأرض عليها في وقت انكســرت فيه لغة الشاعر، سلاحه وجسره إلى الوطن . لقد أخذ العدو كل شيء وفرض سلاما في علاقة غريبة يطلب منها الجلاد الوسام من الضحية، وفي مواجهة الشاعر لعدوه القاضي يعلن الخروج من المشهد بانقلاب، متحولا من محاكمتهم لماضيه، إلـــى أن يتخذ هو دور القاضي الذي يصدر حكمه بتركهم أحرارا في سجن وطنـــه، الـــذي سيرجع الموتى من لغة الشاعر إليه سالمين وتغلـــق المحاكمـــة، بعكـــس معـــاني الأوضاع الحالية إلى حقيقة مفادها، أن العدو حين اخذ حريته علـــى هـــذه الأرض فسيكون سجينا فيها إلى أن يعود أبناؤها من الموت لمحاسبته :

والسماء انكسرت في لغتي، يا سيدي

القاضي .. وهذا شأني الشخصي

..

ولكن رعاياك يجرون سمائي خلفهم .. مبتهجين

ويأتون إلى باحة بيتي .. هادئين

---

[1] ق. عندما يبتعد، د. لماذا تركت الحصان وحيدا، ص١٦٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وينامون على غيمة نومي .. آمنين

ولكن رعاياك يجسون كلامي غاضبين

ويصيحون بآحاب وإيزابيل : قوما، ورثا

بستان نابوت الثمين

ويقولون : لنا الله

وأرض الله

لا للآخرين

***

في بلاد يطلب الجلاد فيها

من ضحاياه مديح الأوسمة

آن لي أن اصرخ الآن

وان اسقط عن صوتي قناع الكلمة

هذه زنزانة، يا سيدي، لا محكمة

وأنا الشاهد والقاضي . وأنت الهيئة المتهمة

فاترك المقعد واذهب "أنت حر أنت حر

أيها القاضي السجين

إن طياريك عادوا سالمين

والسماء انكسرت في لغتي الأولى –

وهذا شأني الشخصي كي يرجع

موتانا إلينا – سالمين [1]

---

[1] ق. شهادة من برتولد بريخت أمام محكمة عسكرية، د.لماذا تركت الحصان وحيدا، ص١٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمة

لقد رأينا كيف استطاع أن ينتقل في سلمه لشعري صعودا مسافات شاسعة. تتفاوت فيها أنغامه وأحاسيسه، وترتيبه لأولية الأشياء. لنشاهد عدوه في هذه المساحات يأخذ ألواناً عدة مقترباً ومبتعداً، ولكن في ذات الزي. فمنذ انطلاق الشاعر كان العدو دموعاً وحشياً وسارقاً للأرض. ولقد استمر هكذا دائماً، رغم محاولات درويش إقامة خط يصله بالمجتمع الإسرائيلي نوعاً من التواصل الإنساني.. ولكن صورة العدو هذه تأخذ أحجاما مختلفة بانبعاث وحوش أخرى الى جانبها. ولا سيما حين يجد الشاعر نفسه في عالم الشتات. وينتقل موقف درويش نفسه من العدو من مؤمن بقوة أثر الصمود الشعبي التحدي البطولة والمراهنة على البعد القومي الى تراجع ذلك كله، حين خرج ورأى الألغام التي زرعت حول طريق ثورته. ليصل الى خيبة من الواقع وانتقال من الدعوة الى الصمود الى حلم العودة الذي انبعث في داخله المراهنة على البعد الحضاري للصراع الذي سيضع حداً لهذه الفوضى الزمنية منتصراً فيه الى صاحب العمق الحضاري الفعلي.

وقد مالت هذه الصورة الى نوع من اليأس بعد اتفاقيات السلام التي ظهر فيها العدو منتصراً وقد ثبت أركان استقرار له في البلاد. هذا الاستقرار الذي يعتبره درويش مرحلة سيعيشونها حتى يعود أبناء الأمة من قبور هزيمتهم لمحاسبة عدوهم.

وقد اتخذت لغة درويش ألواناً متشكلة وفق مراحلها. فقد كانت تتوجه بالخطاب الصريح بالرموز البسيطة في التصوير. وتلك الرموز كانت تكتسب نوعا من الاستقلالية في البداية، إلا أنها بدأت تتحول الى ومضات في مشهد كلي تتكامل عناصره.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصادر والمراجع

المصادر :

- محمود درويش، أحد عشر كوكبا، ط١، دار الجديد، بيروت، ١٩٩٢ .
- محمود درويش، ديوان محمود درويش، ط٤، دار العودة، بيروت، ١٩٩٤.
- محمود درويش، عابرون في كلام عابر، دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٨٨
- محمود درويش، لماذا تركت الحصان وحيدا، ط١، رياض الريس، لندن، ١٩٩٥ .
- محمود درويش، يوميات الحزن العادي، منظمة التحرير، مركز الأبحاث، بيروت، ١٩٧٣ .

المراجع :

- إبراهيم علان الشعر الفلسطيني تحت الاحتلال، المؤلف، الشارقة، ١٩٩٥ .
- أحمد الزعبي، الشاعر الغاضب محمود درويش، المؤلف، أربد، ١٩٩٥ .
- جميل صليبا، المعجم الفلسطيني، ج٢، دار الكتاب، ١٩٨٢ ز
- حسن ظاظا، الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه، ط٢، دار القلم، دمشق، ١٩٨٧.
- حمودة زلوم، الشخصية اليهودية في الأدب الفلسطيني الحديث، ١٩٨٢ .
- الحلقة النقدية في مهرجان جرش السادس عشر، زيتونة المنفى دراسات في شعر محمود درويش، دار الفارس، عمان، ١٩٩٨ .
- رجاء النقاش، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، ط٣، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- عادل الأسطة، اليهود في الأدب الفلسطيني بين ١٩١٣ - ١٩٨٧، اتحاد الكتاب الفلسطينيين في الضفة وقطاع غزة، ط١، ١٩٩٢ .

- عبد الرحمن ياغي، دراسات في شعر الأرض المحتلة في الستينات ن معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٦٩ .

- فراس السواح، مغامرة العقل الأولى دراسة في الأسطورة، ط١، دار علاء الدين، ١٩٨٨ .

- محمود درويش المختلف والحقيقي دراسات وشهادات، دار الشروق، عمان، ١٩٩٩ .

- هاشم ياغي، حركة النقد الأدبي الحديث في فلسطين، المنظمة العربية للثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٣ .

- يوسف الخطيب، ديوان الوطن المحتل، "دار فلسطين للتأليف والترجمة والنشر" ١٩٦٨ .

الدوريات :

- إدوارد سعيد، تلاحم عسير للشعر والذاكرة الجمعية، مجلة القاهرة، عدد ١٥١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، يونيو ١٩٩٥، ص٢٢-٢٤ .

- حاتم الصكر، عن الحجر والهيكل العظمي للهدهد، مجلة الكاتب العربي، عدد ٢٣، الاتحاد العام للادباء والكتاب العرب، ١٩٨٩، ص٧٠-٧٣ .

- شربل داغر، لقاء مع محمود درويش، مجلة كل العرب، العدد ٧، ١٩٨٢، ص٥٠-٥٥ .

- محمد دكروب، لقاء مع محمود درويش، مجلة الطريق، عدد ١٠-١١، مطبعة النجاح، بيروت، ١٩٦٨، ص٤٨-٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- محمود درويش في انتظار البرابرة، مجلة الكرمل، عدد ١٨، مؤسسة الكرمل الثقافية، ١٩٨٥، ص٤-٩ .
- محمود درويش، لا قداسة لجلاد، مجلة الكرمل، عدد ٥٢، مؤسسة الكرمل الثقافية، رام الله، ١٩٩٧، ص٢١٧-٢٢٣ .
- محمود درويش، لماذا خرجت من إسرائيل، الهلال، آذار، ١٩٧١، ص٤-٩ .
- محمود درويش، مرثية سلام لم يولد بعد، الكرمل، عدد ٥١، مؤسسة الكرمل الثقافية، رام الله، ١٩٩٧، ص٦-١١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

Abstract

Image of the Enemy in the Poetry of Mahmoud Darweesh

Prepared by: Asma` Abu Gheith
Supervised by: Dr.Hashem Yagi

This study deals with the image of the enemy in the poetry of Mahmoud Darweesh due to the correlation of this poetry with the Palestinian national question.

This study extracts the image from Mahmoud Darweesh's poetry through the mode of relations with the enemy as expressed by him and the impact of such relations on the life of the Palestinian. This is in addition to the Poet's own view of the enemy, who sometimes is called by him as "the Other". The Poet has tried on a certain occasion to create sort of differentiation between the existence of the enemy, as a dominating authority and individuals.

This study has demonstrated the Poet's view of the present state of affairs of the enemy, its ideological and political background and the effect of its existence on the existence and march and progression of the Palestinian people and the development of that with the development of events and relations.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit